جمال بدوي

شهداء وضحايا

من تاريخ الإسلام

مكتبة عالم الفكر
ميدان سيدنا الحسين - القاهرة
(ت ٩٣٦٦٠٩ - ٩٠٢٠٤)

شهداء وضحايا من تاريخ الاسلام

شهداء وضحايا

من تاريخ الإسلام

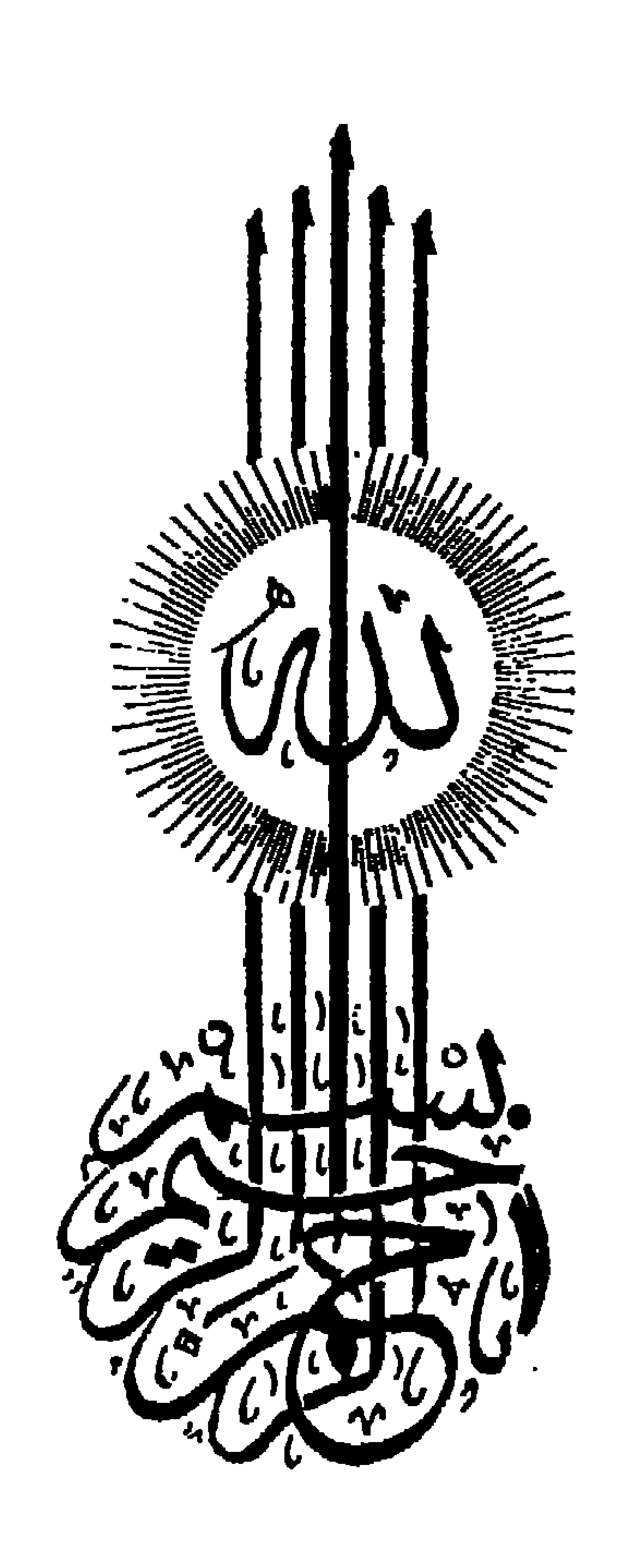
تأليف

جمال بدوي

الطبعة الأولى

١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م

مكتبة عالم الفكر
ميدان سيدنا الحسين - القاهرة
(ت: ٩٢٦٦٠٩ - ٩٠٢٠٤)


الله
بسم الله الرحمن الرحيم

الاهـــداء

الى أولادى

وكل الذين يتطلعــون الى غـــد تشرق عليـــه شمس العــدل والحرية

تصدير

كان من المستحيل أن تستقيم مسيرة البشرية بدون شهداء وضحايا ينحازون الى جانب الحق والخير والجمال ، ويقاومون الظلم والطغيان والضلال ، وتاريخ الاسلام حافل بالرواد الذين بذلوا أرواحهم من أجل أن تبقى القيم الرفيعة التى جاء بها الاسلام ، حية مزدهرة ، قيم الحرية والعدل والتراحم والاخاء واحترام كرامة الانسان ، ومقاومة الذل والاستعباد والاستبداد والاستعمار وكل ما يجعل الحياة كريهة بغيضة ، ولقد حاولت فى هذا الكتاب أن ألقى بعض الضوء على حياة هؤلاء الأبطال ، ليس بهدف تخليد أسمائهم ، فهذا أمر كفلته أمهات الكتب ، ولكن بهدف احياء ذكرهم فى قلوب الأجيال المتعطشة الى القيم السامية والحياة الكريمة .

جمال بدوى

مصر الجديدة

يناير ١٩٨٤

شــــهيد باب زويلة

فى ذلك اليوم الحزين .. خرجت القاهرة لتلقى نظرة الوداع على سلطان مصر الأسير ، وهو يمضى إلى حتفه وقد أحاطت به سيوف العثمانية من كل جانب ، فبدا مثل أسد جريح وقع فى شباك صياد غادر ، ولم يكن أحد يصدق أن البطل المصور في طريقه إلى ساحة الإعدام عند باب زويلة فهو يختال فوق صهوة جواده مرفوع الهامة .. ثابت الجنان .. باسم الثغر .. يلوح إلى الناس بيديه فيبث فى قلوبهم الثقة والطمأنينة والأمل . . حتى أن بعضهم صدق الاشاعات التى ذاعت فى الصباح بأن اعداءه سيعاملونه كما يعامل الأبطال حين ينكسرون ، فمن قائل أن الخنكار سليم شاه سيسمح له بالسفر إلى مكة ليقضى بقية عمره فى جوار البيت العتيق ، ومن قائل انه سيبعث به إلى استانبول ليعيش معززاً بين يدى اعدائه على عادة الفرسان حين يكرمون أعداءهم فيزدادون عظمة فى نظر الناس والتاريخ .. ولكن القلة من المصريين كانوا يستبعدون هذه الأوهام الجميلة بعد أن شاهدوا فظائع الخنكار سليم وغرامه بسفك الدماء .. وخبروا خلقه الذى لا يعرف للشهامة طعماً.

ولا تمت بشبهة الصلة إلى تقاليد الفروسية والكرم .. وعرفوا أن ساعة القضاء قد حمت .. ولا راد لها .

وكان سلطان مصر الأسير . وبطل كفاحها الشعبى وقائد مقاومتها الأسطورية — طومان باى — أول من يعرف هذه الحقيقة لذا كان حريصاً على أن يكون آخر عهده بالدنيا وأول عهده بالآخرة بث روح الصلابة والتحدى فى نفوس المصريين حتى لا يستسلموا للهزيمة ولكى تبقى جذوة الجهاد متقدة تحت الرماد . . كانت نظراته الحادة تنم عن ثقة غير محدودة بأن مصر المحروسة لن تذل .. ولن تركع تحت أقدام الغزاة مهما طال الأمد واشتد القهر .. هكذا تعلم من درس التاريخ .. وهكذا أكدت له وقائع الأيام المجيدة القريبة ، لما تخلى عنه الأمراء والقادة وحملة الألقاب الفخيمة .. ولم يصمد معه سوى أبناء الحوارى والأزقة والعطوف والحسينية وبولاق والسيدة والناصرية والصليبة ..

أنها مصر المحروسة بعناية الله .. هكذا تقول كتب الدين والتاريخ فما من جبار أرادها بسوء إلا قصمه الله ..وها هو ذا الخنكار سليم بن عثمان . يكسر جيشها . ويطأ أرضها ، ويمحو استقلالها . ويردم شوارع القاهرة بجثث أبنائها .. ولسوف تمضى ثلاثة قرون ومصر تنزف من سيوف ،

الانكشارية والأصباحية والسباهية من شراذم الجند العثمانية ولسوف يخيم عليها الظلام والظلم والجهل والفقر . ثم تمضى فى العثمانيين سنة التاريخ كما مضت فى أمم من قبلهم .. فيندثرون ويبقى شعب مصر .. صانع الحضارة . وزارع المدنية . ومعلم الانسانية . وتبقى مصر الصابرة الصامدة واحة للرخاء والحب والأمن والسلام .. وينهض الفلاح المصرى من رقاده الطويل ويرتدى آلة الحرب التى حرم منها منذ سقوط دولة الفراعنة .. ثم يمرق كالسهم فيعبر المتوسط ـ تحت راية محمد على ـ ليدق أبواب عاصمة بن عثمان . ويهز عرش أحفاده . ويحطم كبرياءهم . ويكاد يضمهم إلى أمبراطوريته العربية الناهضة ، لولا تدخل الدول الأوربية التى حرصت على أن يظل الرجل المريض .. مريضاً .. ولا يلفظ أنفاسه على يد الفلاح المصرى سليل أحمس وتحوتمس ورمسيس ..

إقرأوا الفاتحة ثلاث مرات

وعند باب زويلة توقف الموكب المهيب . وتطلع السلطان الأسير إلى قبو البوابة فرأى حبلا يتدلى فأدرك أن نهايته قد حانت ، فترجل .. وتقدم نحو الباب بخطى ثابتة .. وتلفت نحو الجماهير المتجمعة عند أفواه الحوارى وخلف المشربيات ذات العيون الضيقة .. وطلب من الجميع أن يقرأوا له الفاتحة ثلاث مرات ..

واكتست وجوه المصريين بتهاويم الوجوم .

واحتبست فى حلوقهم العبرات..

ورفعوا أكفهم إلى السماء .. يقرأون..

وخيم الصمت إلا من همهمات الفاتحة تتردد فى الصدور الجريحة فيسمع لها هدير يزلزل الجبال ..

والتفت السلطان البطل إلى الجلاد وقال له : إعمل شغلك وبدأ الجلاد يعمل شغله . وعلى كثرة ما شنق من أفراد منذ جاء ابن عثمان إلا أنها المرة الأولى التى يشنق فيها أحد سلاطين مصر .. كان الجلاد يعرف هذه الحقيقة المفجعة فلم يعمل شغله كما ينبغى أن يكون الشغل مع العظماء والسلاطين ومن المؤكد أن أعصابه خانته وهو يلف الحبل حول عنق أمير مصر وبطلها القومى .. وكانت مفاجأة ..

مكاتبنا عند ساحة الاعدام ــ المؤرخ المصرى محمد بن أحمد بن إياس ــ يكتب لنا تقريراً وافياً عن هذه المفاجأة فيقول : فلما وضعوا الخية فى رقبته ورفعوا الحبل فانقطع به فسقط على عتبة باب زويلة . ثم انقطع به الحبل مرتين وهو يقع إلى الأرض . ثم شنقوه وهو مكشوف الرأس . وعلى جسده شاياه جوخ أحمر . وفوقها ملوطة بيضاء بأكمام كبار ، وفى رجله لباس جوخ أزرق . فلما شنق وطلعت روحه صرخت عليه الناس صرخة عظيمة وكثر عليه الحزن والأسف .

.. لماذا صرخ المصريون هذه الصرخة العظيمة ، ولماذا حزنوا على طومان باى كثيراً .. وهم الذين كانوا يكرهون المماليك من أعماق قلوبهم ويتمنون زوال ملكهم ، وطومان باى أحد ابناء تلك الطبقة الارستقراطية العسكرية التى جثمت على صدر مصر قرنين ونصف قرن ..

إبن إياس يقدم لنا مبررات هذا الحزن .. وهى مبررات تكشف عن نظرة مصرية موضوعية تميز بين الصالح والطالح . ولا تخلط الحابل بالنابل .. ولا تأخذ الأمير المجاهد بجريرة طبقته أو طائفته أو بنى جنسه .. لقد ذاق المصريون العذاب والمهانة من الأمراء المماليك فى أخريات عصرهم حين تحولوا إلى قطاع طرق .. شغلتهم النهب والسلب والفرار من المعارك قبل أن يحمى وطيسها أما طومان باى فلم يكن من هذا النسيج .. كان فريداً فى صلاحه وعدله .. فريداً فى شجاعته لم يهرب كما هرب أمراؤه حين لاحت فيالق الغزو العثمانى .. وإنما بقى فى قلب القاهرة ، يحض أهلها على مواصلة القتال والتصدى للغزاة .. وينظم شباب الحوارى فى كتائب وفرق لحرب العصابات .. ويخوض بهم معركة حياة أو موت .. يقاتلون الغزاة من بيت لبيت .. ومن شبر لشبر .. ويقتحم بهم معسكر السفاح العثمانى الخنكار سليم شاه ... بلا خوف ولا رهبة ..

مثل هذا الأمير الشجاع .. كيف لا يبكيه المصريون ..؟ وكيف لا يحزنون عليه حزناً كثيراً .. ؟ وهو الذى دافع عن شرف مصر واستقلالها وكرامتها إلى آخر نفس فى صدره..

كان شجاعا بطلا فتك بعسكر العثمانيين

** يقول إبن إياس : فلما شنق ، وطلعت روحه صرخت عليه الناس صرخة عظيمة . وكثر عليه الحزن والأسف ، فانه كان شاباً حسن الشكل ، سنه نحو أربع وأربعين سنة. وكان شجاعاً بطلا تصدى لقتال ابن عثمان وثبت وقت الحرب وحده بنفسه وفتك فى عسكر إبن عثمان وقتل منهم ما لا يحصى وكسرهم ثلاث مرات فى نفر قليل من عسكره . ووقع منه فى الحرب أمور لا تقع من الأبطال . وكان لما سافر عمه السلطان الغورى . جعله نائب الغيبة عنه إلى أن يحضر من حلب . فساس الناس فى غيبة السلطان أحسن سياسة ، وكانت الناس عنه راضية فى مدة غيبة السلطان . وكانت القاهرة فى تلك الأيام فى غاية الأمن من المناسر والحريق وغير ذلك . فلما مات السلطان الغورى عمه وتسلطن عوضه . أبطل من المظالم أشياء كثيرة مما كان يعمل فى أيام الغورى . ولم يشوش على أحد من الناس فى مدة سلطنته ولا يقبل فى أحد من الناس مرافعة ، ولا صادر أحدا من المباشرين فى مدة سلطنته ولما وصل إبن عثمان إلى الشام . وقصد أن يخرج إليه . فشكى

أن الخزائن خالية من الأموال . فقال له الأمراء وجماعة من المباشرين : إفعل كما فعل السلطان الغورى. وخذ أجرة أملاك القاهرة سبعة أشهر ، وخذ على الرزق والاقطاعات خراج سنة ، فلم يسمع لهم شيئاً وأبى من ذلك . وقال ما أجعل هذا أن يكون فى صحيفتى .

ويمضى إبن إياس فى روايته عن طومان باى فيقول : وكان ملكاً حليماً قليل الأذى كثير الخير . وكانت مدة سلطنته ثلاثة أشهر وأربعة عشر يوماً . وكان فى هذه المدة فى غاية التعب والنكد. وقاسى شدائد ومحناً وحروباً وشرورا وهجاجا فى البلدان ، وأخر الأمر شنق على باب زويلة، وأقام ثلاثة أيام وهو معلق على الباب حتى جافت رائحته ، وفى اليوم الثالث أنزلوه وأحضروا له تابوتا ووضعوه فيه . وتوجهوا به إلى مدرسة السلطان الغورى فغسلوه وكفنوه وصلوا عليه هناك ،ودفنوه فى الحوش الذى خلف المدرسة ومضت أخباره كأنه لم يكن ، وقد قلت من أبيات :

ولهفى على سلطان مصر كيف قد
ولى وزال كأنه لن يذكرا
شنقوه ظلماً فوق باب زويلة
ولقد أذاقوه الوبال الأكبرا

يارب فأعف عن عظائم جرمه
واجعل بجنات النعيم له قرا

وإذا كان إبن إياس قد وجد فى نفسه الشجاعة ليرثى سلطان مصر الشهيد بهذه الأبيات الركيكة — لفظاً ومعنى — غير عابى بسطوة الحكومة الجديدة التى حرصت على إزالة آثار العهد البائد ، إلا أنه لم يكن موفقاً أبدا حين ظن أن أخبار طومان باى مضت (كأنه لم يكن) ..

فمصر الأصيلة ذات التاريخ العريق لا يمكن أن تنسى أبطالها الذين وقفوا معها فى ساعة الشدة . وقادوا نضالها ضد الغزاة المعتدين ، وبذلوا أرواحهم فى سبيل عزتها وكرامتها واستقلالها ربما قصد إبن إياس أن أخبار طومان باى مضت كأن لم يكن فى سجلات العهد العثمانى ودفاتر الحكومة العميلة ولكن متى كانت أقدار العظماء توزن بما تدبجة أقلام الكتاب الحكوميين ..

لا يحاربون العدو إلا إذا قبضوا الثمن

تولى طومان باى حكم مصر .. مكرها .. مرغماً .. فقد كان يعلم حقيقة الأوضاع المالية والعسكرية بحكم قرابته للسلطان الغورى ، وبحكم انتمائه إلى طبقة المماليك الحاكمة .. فقد كانت خزانة البلاد خاوية على عروشها بعد أن فرق

الغورى محتوياتها على الأمراء ليغريهم بالخروج معه إلى الشام لملاقاة جيش إبن عثمان قبل أن يتقدم نحو مصر . كان طومان باى فى موقف عصيب حقاً .. فمن أين له بالأموال التى تسدنهم المماليك وهم لا يتحركون إلا إذا قبضوا .. ولا يفهمون أن الدفاع عن شرف الوطن ليس موضع مساومة والمساومة الوحيدة المقبولة هى التسابق على البذل والفداء وحب الاستشهاد .

ولكن أى وطن ؟ وأى استشهاد ؟ وهم الذين لا تربطهم بالوطن إلا وشيجة النهب والسلب .. وأى استشهاد وهم الذين جفت من نفوسهم كل ينابيع النبل والسمو والشرف .. وحلت مكانها نوازع الخسة والتكالب على الحياة الذليلة .. وكان طومان باى يعرف كل هذه الحقائق المزرية عن إخوانه فقد عادوا إليه من معركة مرج دابق بعد أن خانوا أستاذهم وقائدهم الغورى .. وتخلوا عنه وهو فى قلب المعركة فأصيب المسكين بالشلل وسقط من فوق جواده فداسته سنابك الخيل حتى لم يبق من جثمانه أثر . ولم ينعم بمتعة الدفن فى مقبرته البديعة التى بناها خلف مدرسته بالغورية . ولذلك أراد طومان باى أن يتخلى عن السلطنة التى كان يتولاها أثناء غيبة الغورى . أما وقد مات السلطان فقد واتته الفرصة للخروج من المأزق ، فجمع الأمراء وطلب منهم أن يختاروا للسلطنة

من يشاءون . ولكنهم أصروا على سلطنته وقالوا له : ما أعتدنا سلطاناً إلا أنت . وهو يمتنع ، فما كان منهم إلا أن أخذوه وذهبوا معه إلى العارف بالله الشيخ سعود الجارحى حيث يقيم فى زاويته بمصر القديمة ليقنعه بالاستمرار فى السلطنة ، وطومان باى يتعلل بأنواع كثيرة منها أن خزانة البلاد ليس فيها درهم ولا دينار ، فاذا تسلطن لم يجد ما ينفقه على العسكر ، ومنها أن إبن عثمان يواصل زحفه على مصر ، والأمراء يأبون الخروج لقتاله . ومنها أن الأمراء سيغدرون به كعادتهم ويركبون عليه ويخاتلونه ويرسلونه إلى السجن بثغر الأسكندرية .. الخ.

إلى هذا المستوى انعدمت الثقة بين السلطان وأركان حربه ولكن المبررات التى ساقها لم تفلح فى إقناعهم بتخليه عن المسئولية . فقد كان هو رجل الساعة عن جدارة . . فأحضر الشيخ سعود الجارحى مصحفاً شريفاً وحلف عليه الأمراء أنهم لا يخامرون عليه ولا يغدرونه ولا يثيرون فتناً وأنهم ينتهون عن ظلم المسلمين قاطبة .. وأنفض المجلس على ذلك

! يرحمك الله يامولانا الشيخ سعود الجارحى .. فقد كنت رجلا من أهل الله .. لا تعرف خبايا القوم وما انطوت عليه نفوسهم من خسة ولؤم .. هل كنت تتوقع أن يصدقوا فى

حلفهم على المصحف الشريف وهم الذين لا يفهمون حرفاً من كلام الكتاب الكريم ، فلم تمر أيام قليلة على هذه الايمان المغلظة حتى لحسوها . وتغلبت عليهم طبيعتهم..لقد وردت الأخبار بأن جيش إبن عثمان قد أحتل العريش فنادى السلطان بالنفير فجاءه جماعة منهم يقولون : نحن ما لنا عادة نخرج مع العسكر و نحن ما نقاتل إلا الفرنج .. وما نقاتل مسلمين.. وأظهروا التعصب لأبن عثمان .

وأقام طومان بأى معسكراً لتجميع القوات المصرية عند الريدانية (ومحلها حى العباسية حالياً) وأدرك السلطان أن أعوانه لابد خاذلوه .. فارد أن يشترك أبناء القاهرة فى الدفاع عن وطنهم .. ويجعلها تعبئة عامة لكل طوائف الشعب . **فأنطلق المنادون يطلبون من الزعر والصبيان الشطار والفتوات وكل من كان مختفياً على قتل قتيل أو عليه دم يظهر وعليه أمان الله .**

ولا تثريب على السلطان إن أسقط العقوبات ، فالموقف كان فى غاية الخطورة .. والبلاد تحتاج إلى جهود كل أبنائها وتناسى الأحقاد والضغائن .. ومع ذلك بقى تنابلة السلطان على حالهم من الصفاقة والتلامة وبرود الأعصاب .. فاستدعاهم السلطان وقال لهم

أخرجوا .. قاتلوا عن أنفسكم وأولادكم وأزواجكم .. وأنا واحد منكم .. إن خرجتوا خرجت معكم .. وإن تقعدوا قعدت معكم وما عندى لكم نفقة ..

ولكن طومان باى كان يخاطب جثثاً أنعدمت منها كل معانى النخوة . فقالوا له : مانخرج حتى نأخذ مائة دينار لكل مملوك . فقال لهم : ما أقدر على مائة دينار والخزانة فارغة .. كل ما أستطيعه ثلاثين ديناراً لكل مملوك نفقه . ومرتب ثلاثة أشهر بعشرين ديناراً إلى هذا الحد بلغت المساومة على شرف الأمة ثم قال لهم : وإن لم ترضوا بذلك فولوا لكم من تختارونه فى السلطة وأنا أتوجه إلى مكة أو غيرها من البلاد .. ولكنهم لم يأبهوا له وقالوا : إن كنت تعمل سلطاناً فامش على طريقة من تقدمك من السلاطين ، وإن رحت لعنة الله عليك .. غيرك ييجى سلطاناً .. فلما سمع ذلك بأذنه قال لهم : أنتوا أخذتوا من السلطان الغورى مائة وثلاثين ديناراً ولم تقاتلوا شيئاً . وكسرتوا السلطان وأخنيتوا به حتى قتل منكم قهرا . . وهذا إبن أستاذكم الغورى إسالوه إن كان أبوه ترك فى الخزائن شيئاً من المال فيخبركم بذلك .. وإن كان تسلطنوه فأنا أول من يبوس له الأرض ..

فاقترحوا عليه أن يفعل كما فعل قايتباى والغورى فيصادر أموال الأوقاف ويستولى على خراج الأرض والعقارات مقدماً .. ولكنه أبى وامتنع .. وقال .. ما أحدث فى أيامى هذه المظلمة أبدا ..

كان طومان باى حريصاً على تجنب الظلم أو المساس بحقوق الناس وتعاليم الشريعة . حتى فى هذه الظروف الاستثنائية ولو فعل لما لامه أحد .. ولكنه كان طرازاً من الحكام لم نسمع عنه منذ عصر الراشدين ومن نهج نهجهم من الملوك العادلين ، وامتنع أن يسلك مسلك سلفه الغورى حين استولى على أموال الأوقاف والأقطاعات . ولم ينس وهو فى عز الأزمة أن يختلس مائة ألف دينار ويدسها فى جيب إبنه ليستعين بها على غدر الزمن .. هكذا أشيع — كما يقول إبن إياس — فلم يكن من اليسير فى هذه العهود أن يعرف أحد حقيقة ما يجرى على أموال الدولة من تصرفات .

السلطان يحفر الخندق من الجبل الأحمر إلى المطرية

مع نهاية شهر ذى الحجة من عام ٩٢٣ هجرية . كانت سحب الخطر تتجمع على الديار المصرية مع اقتراب الجيش العثمانى من الشرقية فنزل السلطان طومان باى من القلعة وتوجه

إلى معسكر التجمع فى الريدانية . ولبس رداء الحرب . وبلغه أن جماعة من المماليك السلطانية يتوجهون إلى المعسكر فى باكر الصباح حتى يراهم السلطان . ثم يتسللون إلى بيوتهم ويبيتون فيها ..

كان نجوم العسكرية المملوكية يتصرفون كالتلاميذ الأشقياء يذهبون لحضور طابور الصباح ويوقعون على كشف الحضور والانصراف . ثم يقفزون من فوق السور ليبيتوا مع حريمهم فى الوقت الذى دخل فيه الجيش العثمانى مدينة بلبيس وكان طومان باى يريد الخروج إلى بلبيس قبل أن يستريح الغزاة فى ريف الدلتا ..فلم تمكنه الأمراء .. ولو لاقاهم هناك لكان فيه الصواب فان خيولهم كانت قد بطلت من الجوع ، وكان غالب عسكر ابن عثمان مشاة على اقدامهم معه حين خروجهم من الشام وهم فى غاية التعب فكان ربما يكسرهم قبل أن يدخلوا الخانكة ويجدوا العليق والمآكل والمشرب والراحة ... هكذا يقول بن إياس .

ولم يقف طومان باى موقف المتفرج كما أراد له الأمراء أن يكون ، فمن معسكره بالريدانية قام بحفر خندق يبدأ من الجبل الأحمر عند (مدينة نصر) ويخترق صحراء (مصر الجديدة) إلى آخر غيطان المطرية . ونصب على ذلك

الخندق الطوارق والمكاحل معمرة فيها بالمدافع . وصف حولها العربات الخشب فكانت عدتها مائة عربة . وكل عربة يسحبها زوج أبقار ، وفيها مكحلة نحاس ترمى بالبندق والرصاص ، وبعد العجلات مائتا جمل محملة بالبارود والرصاص والحديد ورماح خشب وغير ذلك . ومعهم جم غفير من النجارين والحدادين ..ولم تقتصر همة السلطان عن إعداد العدة حتى كان الناس يبكون ويدعون له بالنصر إذا رأوه يحمل الحجارة بنفسه مع البنائين . ويشيل التراب مع الفعلة فى حفر الخندق وعمل الساتر .

وفى يوم السبت رابع عشرينه استعرض السلطان بالوطاق الزعر (الفتوات) فاجتمع منهم الجم الغفير .فأوعدهم السلطان أنهم إذا قاتلوا عسكر إبن عثمان وانتصروا عليهم ينفق على كل واحد منهم عشرة أشرفية (دنانير) وينعم على كل واحد منهم بسيف وترس . وكلف الأمير (أنصباى) بأن يتدخل لاصلاح ذات البين بين زعر الصليبة . وزعر المدينة .

ولم يفلت طومان باى من التامر على حياته . إذ هجم عليه شخص من التركمان ينوى اغتياله . فقطعوه بالسيوف ثم اكتشفوا أنها إمرأة من التراكمة ولما نزعوا ثيابها وجدوها تلبس زردية الحرب وتخفى خنجراً كبيراً .

طلائع الجيش العثمـــانى
تصـــل إلى القـــاهرة

وفى يوم الأربعاء ثامن عشرين ذى الحجة وصلت طلائع عسكر إبن عثمان عند بركة الحاج بضواحى القاهرة . فاضطربت أحوال العساكر المصرية وغلق باب الفتوح وباب النصر وباب الشعرية وباب البحر . وغلقت الأسواق وتعطلت الطواحين . وزعق النفير بالوطاق . وصار السلطان طومان باى راكباً بنفسه وهو يرتب الأمراء على قدر منازلهم وصف العسكر من الجبل الأحمر إلى غيطان المطرية . وكان له همة فى هذه الحركة ولكن مضى اليوم دون قتال بين الفريقين .

فلما كان يوم الخميس تاسع عشرين ذى الحجة . فيه وقعت كاينه عظيمة تذهل عند سماعها عقول أولى الألباب . فقد زحف عسكر إبن عثمان ووصل أوائله إلى الجبل الأحمر فلما بلغ السلطان طومان باى ذلك زعق النفير فى الوطاق ونادى السلطان للعسكر بالخروج إلى القتال . فركبت الأمراء ودقوا طبول الحرب . وركب العسكر قاطبة حتى سد الفضاء وأقبل عسكر ابن عثمان كالجراد المنتشر وهم السواد الأعظم فتلاقى الجيشان فى أوائل الريدانية . فكان بين الفريقين وقعة مهولة يطول شرحها أعظم من الواقعة التى كانت فى مرج دابق

فقتل من العثمانية ما لا يحصى عددهم . وقتل سنان باشا أكبر وزراء إبن عثمان . وقتل من أمرائه وعسكره جماعة كثيرة حتى صارت الجثث مرمية على الأرض من سبيل علان بك إلى تربة الأمير يشبك . ثم أن العثمانية دبت فيهم الحياةوجاءوا أفواجاً ثم انقسموا فرقتين . فرقة جاءت من تحت الجبل الأحمر . وفرقة جاءت للعسكر عند الوطاق بالريدانية فطرشوهم بالبندق الرصاصى . فقتلوا من عسكر مصر مالا يحصى عددهم وكان ذلك بارشاد بعض الأمراء الخونة الذين انضموا إلى إبن عثمان فلم تكن إلا ساعة يسيرة حتى انكسر عسكر مصر وولى مدبرا وتمت عليهم الكسرة . ولكن ثبت بعد الكسرة السلطان طومانباى وهو يقاتل بنفسه فى نفر قليل من العبيد الرماة . والمماليك السلحدارية . فقتل من عسكر إبن عثمان ما لا يحصى عددهم فلما تكاثرت عليه العثمانية . ورأى العسكر قد قل من حوله خاف أن يقبضوا عليه فطوى السنجق السلطانى . وأختفى جهة طرة .

ودخل العثمانيون القاهرة . وأعملوا فى أهلها السيف ، وصاروا يخطفون الصبيان المرد والعبيد السود . واستمر النهب إلى ما بعد المغرب . ثم توجهوا إلى شون القمح التى بالفسطاط وبولاق فنهبوا ما فيها من الغلال . وفى اليوم التالى

الجمعة أخر يوم من عام ٩٢٣ إستونفت أعمال السلب والنهب وصار العثمانية يدخلون البيوت بحجة البحث عن المماليك . فيعتدون على أصحابها . وفى ذلك اليوم خطب باسم السلطان سليم شاه على منابر القاهرة وقد ترجم له بعض الخطباء فقال و انصر اللهم السلطان إبن السلطان مالك البرين والبحرين . وكاسر الجيشين . وسلطان العراقين . وخادم الحرمين الشريفين . الملك المظفر سليم شاه . اللهم انصره نصراً عزيزاً ، وافتح له فتحاً مبيناً . يامالك الدنيا والآخرة يارب العالمين .

ويأبى إبن إياس إلا أن يختم حوادث العام المشئوم بتلك الأبيات التى تكشف عن اعتقاد غريب بأن ما جرى كان عقاباً من القدر .

ختم العام بحروب وكدر

وحصل للناس غايات الضرر

واتاهم حادث من ربهم

كان هذا بقضاء وقدر

طومان باى يبدأ
حرب العصابات ضد العثمانين

لن نرصد هنا الفظائع والمذابح التى ارتكبها جند العثمانى بعد دخولهم القاهرة . فقد ذكرها إبن إياس بالتفصيل فى الجزء الخامس من مؤلفه الكبير (بدائع الزهور فى وقائع الدهور) . فليرجع إليه من يريد. أما مهمتنا هنا فهى البحث عن طومان باى بعد اختفائه ونجاحه فى الافلات من جند إبن عثمان ، ومن الصعب أن نعرف الأماكن التى لجأ إليها. أو الأشخاص الذين عاش بينهم فى فترة الاختباء . لأن مثل هذه المعلومات يندر العثور عليها بسهولة وتبقى سراً فى صدور أبطالها ولن يطول بحثنا عن سلطان مصر وستفاجأ به يدق أسوار معسكر إبن عثمان ويقتحمه . .

المهم .. أن خاقان البرين وسلطان البحرين وملك العراقين سليم إبن عثمان نقل وطاقه من الريدانية إلى بولاق . فلما كانت ليلة الأربعاء خامس المحرم بعد صلاة العشاء لم يشعر إبن عثمان إلا وقد هجم عليه الأشرف طومان باى بالوطاق واحتاط به . فاضطربت أحوال إبن عثمان إلى الغاية ، وظن أنه مأخوذ لا محالة ، وكان هجوم طومان باى بواسطة مجموعة من الجمال المحمولة بالتبن المشتعل فأشاعت الرعب

والفزع فى عسكر سليم .. ثم هجم طومان باى ومعه الجم الغفير من الزعر وعياق بولاق من النواتية وغيرها . وصاروا يعملون السيف فى جند إبن عثمان فقتلوا منهم مالا يحصى عددهم. وصاروا يرجمون بالمقاليف وفيها الحجارة . واستمروا على ذلك إلى أن طلع النهار فلاقاهم الأمير علان — مساعد السلطان — من الناصرية عند الميدان الكبير فكان بين عسكر إبن عثمان وبين عسكر مصر وقعة تشيب منها النواصى . فملكوا من رأس الجزيرة الوسطى (الزمالك) إلى قنطرة باب البحر (شارع كلوت بك) وإلى قنطرة قديدار ، واستمر الحرب ثائراً بين الفريقين من طلوع الفجر إلى بعد المغرب ، وصار المماليك الجراكسة يكبسون البيوت والحارات على العثمانية ، مثلما كانت العثمانية تفعل بالأمس .. وصار الطالب مطلوباً . فلما كان يوم الخميس سادس المحرم اشتد القتال بين العثمانية والمصريين . ونادى السلطان فى الناصرية وقناطر السباع (السيدة زينب) للزعر والعياق بأن كل من قبض على عثمانى يأخذ حربته ويقطع رأسه ويحضرها بين يدى السلطان . ولكن العثمانية طردوا المصريين من بولاق وجزيرة الفيل وملكوها منهم . ثم طردوهم من الجزيرة الوسطى إلى الناصرية وملكوها منهم. ثم أن العثمانية هجموا والجمر وأحرقوا البيوت التى حول الزاوية . وقتلوا جماعة كثيرة من العوام وفيهم صغار وشيوخ ..

وما فعل العثمانيون ذلك إلا انتقاماً من أهل الناصرية وعقاباً لهم على ما فعله عياقهم وشبابهم من أعمال بطولية أفزعت خاقان البرين وخادم الحرمين الشريفين.

ولكن أين ذهب طومان باى .. ؟

مركز المقـــاومة الشـــعبية في جامع شـــيخو

يقول إبن إياس : ثم أن السلطان طومان باى نزل فى جامع شيخو الذى فى الصليبة (شارع محمد على) وصار يركب بنفسه ويكر من الصليبة إلى قناطر السباع فى نفر قليل من العسكر . ثم رسم بحفر خندق فى رأس الصليبة ، وآخر عند قناطر السباع . وآخر عند رأس الرملة (السيدة عائشة) وآخر عند جامع إبن طولون . وأخر عند حدرة البقرة . ثم أن السلطان رسم بحرق خان الخليلى فمنعه بعض الأمراء من ذلك . وقسم طومان باى عسكره إلى أربع فرق : فرقة إلى قناطر السباع ، وفرقة إلى الرملة ، وفرقة إلى إبن طولون ، وفرقة إلى باب زويلة .. فلم يقابل من المماليك السلطانية إلا القليل ، وصاروا يختفون فى الاسطبلات خوفاً من القتال وقد دخل الرعب قلوبهم من العثمانية ما بقى يخرج منها ..

ثم أن السلطان طومان باى نادى فى القاهرة أن كل من أمسك أحداً من عسكر إبن عثمان وطلب منه الأمان .. يقتله ومن العجائب أن السلطان طومان باى لما ظهر خطب باسمه على منابر القاهرة فى يوم الجمعة .. وكان فى الجمعة الماضية خطب باسم سليم شاه إبن عثمان .. واستمر السلطان يكر على عسكر إبن عثمان ويقتل منهم فى كل يوم ما لا يحصى عددهم ، فرأى عين الغلب وقد تكاسل العسكر عن القتال واختفوا فى بيوتهم وتفرقت الأمراء كل واحد فى ناحية ، واستمر السلطان يقاتل وحده فى نفر قليل من الرماة وبعض المماليك السلطانية ، فلما ظهر له الغالب هرب وتوجه ناحية بركة الحبش (عين الصيرة) وكان قليل الحظ غير مسعود فى أفعاله . وهذه رابع كسرة وقعت لعسكر مصر مع إبن عثمان وقد غلت أيديهم .

ولما هرب السلطان وقعت فى القاهرة المصيبة العظمى . التى لم يسمع بمثلها فيما تقدم من الزمان . فقد طفشت العثمانية فى الصليبة وأحرقوا جامع شيخو انتقاماً من طومان باى وأحرقوا البيوت التى حوله . وصاروا يلعبون بالسيف فى رقاب العوام والغلمان من الذعر وغير ذلك . فصارت جثثهم مرمية على الطرقات من باب زويلة إلى الرملة

والصليبة وقناطر السباع إلى الناصرية ومصر العتيقة . فكان مقدار من قتل فى هذه الواقعة فوق العشرة الآف إنسان فى مدة هذه الأيام الأربعة ، ولولا لطف الله لكان لعب السيف فى أهل مصر قاطبة .

وواصلت القوات العثمانية عمليات التصفية الوحشية للقضاء على جيوب المقاومة الشعبية . فاقتحموا الحارات والبيوت والجامع الأزهر وجامع الحاكم وإبن طولون وهاجموا المدارس والاضرحة والمقابر . وقبضوا على الكثير من المصريين الذين اشتركوا فى قتال الشوارع وقطعوا رؤوسهم وكانوا يعزلون رؤوس المصريين عن رؤوس المماليك ثم يلقون رؤوس المماليك فى النيل أما رؤوس المصريين فيعلقونها على حبال الصوارى إمعاناً فى إذلال الشعب وإرهابه . وحتى لاتسول لهم نفوسهم مقاومة الغزاه مرة أخرى .

وهكذا أخضع سليم شاه القاهرة بوحشية ليس لها نظير وبعد قتال مرير استمر ثمانية أيام متواصلة خضبت فيها الدماء دروب القاهرة وحواريها وأزقتها ، وقاتل فيها الشعب دفاعا عن عرضه وأرضه .

النصر النهائي للعثمانين
وقرار اللجوء الى العربان

أما طومان باى فقد عبر النيل إلى الجيزة لتنظيم ما تبقى معه من قوات ، والاتصال بقبائل البلو فى الصعيد عسى أن توآزره فى هذه اللحظات العصبية وتنسى ما لها من ثأر قديم عند الحكام المماليك . وفى أثناء ذلك جرت الرسل بالتفاوض بين سليم وطومان باى . ولكن المفاوضات فشلت ، وعلم سليم أن طومان باى يستعد لخوض غمار معركة جديدة فخرج لملاقاته عند وردان (مركز أمبابة) ودار بين الجيشين قتال مرير استبسل فيه العسكر المصرى استبسالا مكنهم من إحراز نصر مبدئى فاضطر العثمانون إلى التقهقر ، بل إن بعضهم القى بنفسه فى النيل هرباً من هول القتال ، ولكن سرعان ما استعاد العثمانيون تفوقهم بفضل تقدمهم فى الفنون العسكرية الحديثة فضلا عن أعداهم الكبيرة فلما فقد طومان باى أى أمل فى إحراز النصر اتخذ قراره باللجوء إلى بعض عربان البحيرة ليعيش بينهم لاجئاً إلى أن يقضى الله أمراً ..

وانتهت بذلك سلسلة المعارك الدامية بين المصريين والعثمانين ، وأحرز إبن عثمان النصر النهائى ودخلت مصر ضمن مملكته التى زعم أن الله قد أوصى إليه بأن تمتد من أقصى الشرق إلى أقصي الغرب على غرار مملكة الأسكندر .

الخونة يسلمون السلطان
الى الخنكار سليم

كان حسن مرعى زعيم قبيلة (محارب) بالبحيرة ، وكان السلطان الغورى قد قبض عليه وحبسه لأسباب مالية وكتب على قيده «مخلد» ولكن ما أن تولى طومان باى الحكم حتى أطلقه ، وظن السلطان الطيب القلب أن حسن مرعى سيذكر له هذا الجميل الذى خلصه من سجن مؤبد ، وسيحفظ عليه سره بعد أن اختاره ليلجأ عنده هرباً من عيون السلطان سليم وعندما عرض السلطان مشروعه على أعوانه شكوا فى نوايا حسن مرعى ، ولكن طومان باى استنكر شكوكهم وقال لهم **حين أطلقته أخذت عليه العهود والمواثيق والإيمان المغلظة أن يكون معى ظاهراً وباطناً ويقوم معى بالقلب إذا احتاج الأمر لذلك وما نرى أحسن من سيرنا إليه ونكون نحن وهو على قلب رجل واحد . ثم بعد ذلك ندبر أمرنا وننتظر ما يكون من جانب الله تعالى وهو يعلم أنهم باغون علينا .** وتحت ستار الليل توجه طومان باى مع البقية الباقية من رجاله إلى قرية (تروجة) بالبحيرة فلاقاه حسن مرعى وإبن أخيه شكر بالترحاب فى ضيعة تسمى (البوطة) فأخرج طومان باى مصحفاً وطلب منهما أن يقسماً عليه ألا يخوناه أو يغدراً به

فأقسما على ذلك وعندئذ طاب قلب طومان باى ووافق على الاقامة عندهما .

ولكن ما أن اجتمع حسن مرعى مع أعوانه حتى أدركوا خطورة إيوائهم للسلطان المهزوم ، وأدركوا أنهم بذلك يقفون إلى جانب الكفة الخاسرة ، وتغلبت بواعث الطمع والانتهازية على نوازع النخوة والشهامة وقدروا المكاسب التى سيحصلون عليهم إذا هم وقفوا فى صف الحاكم الجديد ، فبعثوا إلى سليم شاه يخبرونه بوقوع الفريسة فى أيديهم . وفى الحال أرسل سليم فيلقاً من الانكشارية للقبض على سلطان مصر الذى باعه العربان بأبخس الأثمان .

طومان باى يدافع
عن حقه المشروع فى الحرب

دخل طومان باى معسكر سليم فى إمبابة وهو فى زى عرب الهوارة الذى تخفى فيه ، وعندما وقعت عليه عين سليم صاح طربا :

الحمد لله أستطيع القول باننا ملكنا ملك مصر .

ودار بين الرجلين حوار سجلته كتب المؤرخين . وهو يصلح لأن يكون درساً فى الوطنية والشجاعة فى كل زمان ومكان . لقد صب السماح العثمانى أبشع اللعنات على السلطان

الأسير . وأراد أن يحمله مسئولية الدماء التى أريقت ، ولكن السلطان لم يفزع .. ولم يتخاذل ولم يستطعف وإنما ظل رابط الجأش .. ثابت القلب .. قاطع الرد ..

قال له إن ما قام به من أعمال إنما كان واجباً مقدساً أملاه عليه شرفه الوطنى والعسكرى . وانه ملزم بالدفاع عن بلاد هو حاكمها ويجب عليه حمايتها ما استطاع إلى ذلك سبيلا وان حق الدفاع عن الوطن أمر مشروع لايحتاج إلى دليل أو برهان. ثم خاطبه قائلا : أما أنت .. فلا أدرى كيف تبرأ نفسك أمام الله من اعتدائك الجائر على بلادنا .. وعندما لامه سليم على رفضه الاعتراف بالسيادة العثمانية على مصر رد عليه بهذه الكلمات :

إن الأنفس التى تربت فى العز لاتقبل الذل .. وهل سمعت أن الأسد يخضع للذئب ؟ أنتم لستم أفرس منا .. ولا أشجع منا .. وليس فى عسكرك من يقايسنى فى حومة الميدان .

يقول الرواة أن سليم شاه انبهر من شجاعة أسيره .. وحدثته نفسه بالابقاء عليه والافادة منه فى ترسيخ العهد الجديد ، وحين شاعت هذه الأقاويل فى دوائر الحكومة العثمانية فزع منها الخونة من الأمراء المماليك الذى خانوا

وطنهم وانحازوا إلى جيش الغزو من أول دقيقة ، ولم يسكت هؤلاء الخونة وإنما حرضوا الخنكار على التخلص من طومان باى ، وافهموه أن استقرار الحكم العثمانى فى مصر رهن بالقضاء على هذا الرجل الذى أصبح رمزاً للوطنية المصرية ، وبطلا للكفاح الشعبى الذى لم يخمد نهائياً ..

* * *

واقتنع سليم برأى الخونة .. فأمر باعدام طومان بأى وفى يوم الاثنين ٢١ ربيع الأول عام ٩٢٣ هجرية خرج موكب السلطان الأسير من المعسكر العثمانى فى أمبابة حتى وصل بولاق وهو فى حراسة ٤٠٠ جندى من الانكشارية. ثم اتجهت مسيرته فى شوارع القاهرة ليعلم المصريون أن بطلهم الأسطورى فى طريقة إلى حبل المشنقة وتخمد بذلك أى بارقة أمل فى الخلاص .. وخرج الناس يلقون النظرة الأخيرة على السلطان الذى خاض بهم حرباً مقدسة فلم يساوموه على درهم ولا دينار .. وإنما تسابقوا إلى البذ ل والعطاء .. وجاءعليه الدور ليدفع أغلى ما يملكه الانسان فداء لوطنه ..

أصدقاء من الماضى

هل جربت أن تصادق انساناً مات منذ ألف عام...

انى أعيش حالة هيام خفى بأصدقاء غيبهم الثرى منذ مئات السنين .. ولكنهم ينبضون فى قلبى أنساً واشرافاً .. ويملاون حياتى فيضاً وعطاء .. أجلس إليهم فى هدأة الليل فأشعر بأنفاسهم تصافح وجهى أطهر من ماء المطر .. وأنقى من أنفاس الفجر وأحاورهم فلا يملون . . وأسألهم فلا يبخلون .. وأتمرد عليهم فلا يبطشون ولا يستكبرون . . أستخلص من تجاربهم سر الانسان منذ دبت أقدامه على سطح الأرض فأقام الممالك وأنشأ الحضارات ثم أشعل الحروب وسفك الدماء ودمر الممالك وأطفأ مشاعل الحضارة.. ولكنه لا يلبث أن ينهض من كبوته ليستأنف عملية البناء .. والهدم حتى تتعاقب دورة الوجود إلى مالا نهاية ..

إن أصدقائى خليط من العظماء والصعاليك .. خلفاء ومماليك وحجاب وقواد وقضاة وولاة وشعراء ومتكلمون قال كل منهم كلمته ثم مضى إلى حيث لا يملك حيلة فى رزق .. ولا شفاعة فى فعل .. ولقد جفت الأقلام وطويت الصحف ،وأصبحت صفحاتهم مشاعاً منشوراً لمن يبحث

عن سر عظمة الانسان وجحوده ، قوته وضعفه ، نبله وخسته ، تقرأهم فترضى عنهم أو تسخط عليهم .. ولكنك لا تملك إلا أن تأنس إليهم وتألفهم ، وتنسى متاعب الدنيا فى القرب منهم ، فهم لا يعرفون الكذب ولا الرياء ، وإنما يقدمون إليك أنفساً عارية من الزيف والخداع بعد أن سقطت الاقنعة ، وزالت المساحيق وذاب الهيلمان .. وأصبح عملهم وديعة فى يد من يملك الحساب يوم الحساب ..

وكم وددت لك أن تحب هؤلاء الأصدقاء كما أحببتهم ، وأن تتوثق صلتك بهم فيزداد رصيدك من المعرفة الرصينة والثقافة الحادة ، ولربما عدلت عن رأى لازملك دون فحص أو روية . أو كونته تحت تأثير شذرات من المعرفة عرضت لك على عجل وأنت تتصفح بعض كتب التاريخ .

* * *

وددت لك أن تصادق (المأمون) ذلك الخليفة المثقف الذى شغل نفسه بأمور العلم والفلسفة بنفس القدر الذى أعطاه لشئون الحكم والسلطان . وانتقل بالعقل العربى عبر الحدود والأفاق ، ينتقى ثمرات العقول والأفهام كما تستخلص النحلة رحيق الزهور . وعلى كثرة الصفات المحمودة فى شخصية أبى عبد الله المأمون ، فان صفة بعينها شدتنى إليه .

وربطت بينى وبينه برباط الحب ، وهى صفة العفو عند المقدرة وهى صفة لايقدر على التحلى بها إلا كبار النفوس

لم يكن المأمون من ذلك النوع من الحكام الذين تسكرهم نشوة السلطة ، أو تغريهم حمرة الدم ، بل كان يملك نفساً تفيض حباً وحناناً وقلباً ينفطر رقة وعذوبة وأسى على العتاة والمتمردين بعد أن يفشلوا ويلقوا أسلحتهم فيذهبون إليه طامعين فى كرمه ونبله ، فيعفو ويصفح .. حتى قال عن نفسه : « لقد خبب لى العفو حتى خفت ألا أوجر عليه أما لو علم الناس ما لنا فى العفو من لذة لتقربوا إلينا بالجنايات ... » .

ولقد قالها المأمون لعمه إبراهيم بن المهدى بعد أن فشلت خطته فى التآمر على المأمون ووقع فى يده أسيراً .. وكان ابراهيم قد خرج على ابن أخيه لما عقد ولاية العهد لعلى الرضا (العلوى) فثار أمراء البيت العباسى على تصرف المأمون وخلعوه من الخلافه وبايعوا عمه ابراهيم بن المهدى فتعقبه المأمون حتى ظفر به ، وأدخل عليه وهو يحجل فى قيوده

فقال : السلام عليك ياأمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ..

فقال له المأمون : لا سلم الله عليك ولا حفظك ولا رعاك ياإبراهيم .

فقال له ابراهيم : على رسلك ياأمير المؤمنين ، ولى الثأر محكم فى القصاص . والعفو أقرب للتقوى ، ومن مدله الإغترار فى الأمل هجمت به الأناة على التلف ، وقد أصبح ذنبي فوق كل ذنب ، كما أن عفوك فوق كل عفو ، فان تعاقب فبحقلك ، وان تعف فبفضلك ثم أنشد :

ذنبي إليك عظيم   وأنت أعظم منه
فخذ بحقك أو لا   فاصفح بفضلك عنه
إن لم أكن فى فعالى   من الكرام فكنه

فأطرق المأمون مليا ثم رفع رأسه فقال : إنى شاورت أخى أبا اسحق وولدى العباس فى قتلك فأشار على به .

فقال ابراهيم : فما قلت لهما ياأمير المؤمنين ؟

قال : قلت لهما .. بدأنا له باحسان ونحن نستأمره فيه ، فان غير فالله يغير ما به.

فقال ابراهيم : أما أن يكونا قد نصحاك فى عظم قدر الملك وما جرت عليه عادة السياسة فقد فعلا ، ولكن أبيت ان تستجلب النصر إلا من حيث عودك الله . ثم بكى .

فقال له المأمون : ما يبكيك ..

قال : جذلا .. إذ كان ذنبي إلى من هذه صفته فى الإنعام .. ثم استطرد فقال : ياأمير المؤمنين . إنه وان كان

جرمى يبلغ سفك دمى فحلم أمير المؤمنين وتفضله يبلغانى عفوه ، ولى بعدهما شفاعة الإقرار بالذنب ، وحرمة الأب بعد الأب .

فقال المأمون : القدرة تذهب الحفيظة ، والندم توبه ، وعفو الله بينهما وهو أكبر ما يحاول ، ياإبراهيم لقد حببت إلى العفو حتى خفت ألا أوجر عليه ، أما لو علم الناس ما لنا فى العفو من اللذة لتقربوا الينا بالجنايات ، لا تثريب عليك يغفر الله لك ، ولو لم يكن فى حق نسبك ما يبلغ الصفح عن زلتك لبلغك ما أملت حسن توصلك ، ولطيف تنصلك ، ثم أمر برد ماله وضياعه ..

أرأيت إلى أى مدى بلغت نفس المأمون فى الصفح عن خصومه مهما بلغ جرمهم ... ألا تشعر بقدر كبير من الطمأنية وسلامه النفس وأنت تستمع إلى ذاك الحوار البيلغ بين خليفه قوى الشكيمة ،وخصم ذكى عرف كيف يضرب على الوتر الحساس فنجا من الموت .. ولا تنس أن ابراهيم هذا كان من رجال الطرب والغناء ..

أبو سليمان المنطقى

وهذا صديق أخر – ليس من رجال الدولة والسلطان، ولكنه من رجال العلم والعرفان – فهو أشبه (بجامعة) يتخرج من تحت قبتها مئات التلاميذ الذين تصدروا مراكز الثقافة فى قصور العباسيين دون أن يفكر هو فى طرق أبواب الخلفاء بحثاً عن العطاء كما كان يفعل غيره ، وإنما كان يلزم بيته المتواضع ويأتيه طلاب العلم من كل الأصقاع الإسلامية يستمعون إلى علمه الغزير ، وينهلون من بحر علومه الذى لم يكن له قرار إنه أبو سليمان محمد بن طاهر بن بهرام السجستانى الشهير بالمنطقى .. استمع إلى الصورة الوصفية التى يقدمها لنا أنجب تلاميذه وألمعهم أبو حيان التوحيدى فى كتابه الشهير (الامتاع والمؤانسة) وهو يحدثنا عن أساتذته :

« أما شيخنا أبو سليمان .فانه أدقهم نظراً وأقعرهم غوصاً وأصفاهم فكراً وأظفرهم بالدرر. وأوقفهم على الغرر. مع تقطع فى العبارة ، ولكنة ناشئة من العجمة ، وقلة نظر فى الكتب ،وفرط استبداد بالخاطر ،وحسن استنباط للعويص وجرأة على تفسير الرمز ، وبخل بما عنده من هذا الكنز» .

ونفهم من وصف أبى حيان أن بيت استاذه المنطقى كان نادياً ثقافياً بكل معنى الكلمة ، حيث تعقد الندوات العلمية

والحلقات الفكرية ، يحضرها أبو حيان ويسجل وقائعها ويشترك مع غيره من الباحثين وطالبي المعرفة فى مناقشة أستاذهم والافادة منه فى الأمور الروحانية والأنباء الآلهية والأسرار الغيبية ومسائل النفس والأخلاق والدين والسياسة وصفات الملوك وأنظمة الحكم حتى كان الوزراء يتلمسون آراءه فيهم . ويسألون تلميذه أبا حيان عن مدى رضائه عنهم — كل ذلك وهو قابع فى بيته ، معتز بعلمه ، معف عن التردد على أبواب السلاطين . فالعلم فى رأيه أكبر من كل جاه .

الفقهاء الشجعان

وهذا النموذج الفريد من العلماء الأفذاد ، يذكرك بالرعيل الأول من الفقهاء الأكرمين الشجعان الذين عرفوا مسئوليتهم . أمام الله تجاه الرعية التى تأخذ أقوالهم عن ثقه واعتزاز فتحرجوا بأنفسهم عن الممالأة أو المداهنة استرضاء لحاكم أو خوفاً من بطش طاغية .

عندك — على سبيل المثال — أبو الحسن البصرى . لم يمنعه بطش الأمويين من أن يقول رأيه فيهم علنا وعندك على سبيل المثال أيضاً — الإمام مالك الذى لم تفلح معه اغراءات العباسيين لاقناعه بجمع فتاويه فى كتاب يكون هو

المرجع الرسمى الوحيد الذى يلتزم به القضاه فى كل انحاء الدولة .

والقصة تقول أنه لما حج المنصور التقى بالامام مالك وقال له : لقد عزمت على أن آمر بكتبك هذه التى وضعتها فتنسخ ، ثم أبعث إلى كل مصر من أمصار المسلمين منها نسخة وآمر هم أن يعملوا بما فيها ولا يتعدوه إلى غيره .

ولك أن تتخيل رد أى عالم فى زماننا المعاصر إذا طلب إليه ولى الأمر أن يكون كتابه هو المرجع الرسمى الوحيد فى الدولة ..

ولكن الامام مالك لم يكن من فقهاء زماننا ، لذلك رفض مطلب الخليفة المنصور ، وقال له :

ياأمير المؤمنين — لا تفعل هذا .. فان الناس قد سبقت إليهم أقاويل .. وسمعوا أحاديث ورووا روايات ،وأخذ كل قوم بما سبق إليهم — ودانوا به .. فدع الناس وما اختار أهل كل بلد منهم لأنفسهم ..

أرأيت إلى هذا المستوى الخلقى الرفيع . الذى يجاوز فى سموه ورفعته سمت النجوم .. أرأيت إلى هذا الامام العظيم الذى بلغ من سعة الأفق . وعمق الادراك ما جعله يحترم الروايات المتعددة التى انتقلت إلى الأمصار مع انتقال كبار

الصحابه إليها فأخذ كل قوم بما سبق إليهم .. ولم يقبل دعوة المنصور فى الحجر على حرية الرأى والاجتهاد .. ورأى فيها عملا تعسفياً لصب أفكار الناس فى قالب واحد ، وهو عمل يتعارض مع الطبيعة البشرية التى جبلت على الخلاف ومع الأصول الفقهية التى ترى فى الخلاف قاعدة سليمة للتيسير على الناس .

ويمضى زمان المنصور .. ويأتى زمان الرشيد .. فيكرر محاولة جده . ويطلب من الامام مالك جمع الحديث فى كتاب واحد وحمل الناس عليه وترك ما عداه وأن يكون الموطأ أساس لقانون موحد تحكم به الدولة الإسلامية . ويتخذ صيغة رسمية . ولكن الامام الجليل يرفض مطلب الرشيد كما رفض طلب المنصور ويعلق على ذلك بقوله :

شاورنى الرشيد فى أن يعلق الموطأ فى الكعبة ويحمل الناس على ما فيه .. فقلت لا تفعل .. فان أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم أختلفوا فى الفروع وتفرقوا فى البلدان وكل مصيب .

* * *

وهذا موقف آخر لأول الأئمة الأربعة المباركين ، وهو الامام أبى حنيفة النعمان الذى رفض منصب القضاء فى الكوفه على عهد مروان بن محمد (الحمار) آخر خلفاء بنى أميه ..

فعوقب على رفضه بالضرب بالسياط من جانب والى الكوفة يزيد بن هبيرة ..

وأنت تستطيع أن تفهم بسهولة اباء أى شخص عن تولى أحد المناصب .. فهذا من أبسط حقوقه .. ولكنك لا تستطيع أن تفهم أبدا أن يكون جزاء الرفض هو الضرب بالسياط .. وإذا كان الضرب بالسياط .. حماك الله منه وعافاك .. هو من أخس وأحقر أساليب التعذيب . فكيف به إذا استخدم مع رجل فى مكانة أبى حنيفة .. ودون ذنب جناه .. ألا أن يكون الاباء جريمة يستحق مرتكبها الجلد بالسياط .. هل أقفرت الكوفه من عشرات القضاة الذين يصلحون لتولى هذا المنصب الكريم .. ؟ إذاً فلماذا الاصرار من جانب الوالى على تولية أبى حنيفة .. الذى لم يقابل هذا الإصرار إلا بالرفض البات .. ؟

الواقع أنه كانت هناك خلفية لهذا الحدث .. كما تقول التعبيرات العصرية ، وهو أن الدولة الأموية فشلت فى كسب العلماء الأفذاذ ، وكان الفقهاء الأجلاء يتعففون عن تقبل المناصب حتى لا يحسب ذلك منهم تأييداً للدولة لايشعرون بتعاطف نحوها .. ولم تكن ضمائرهم تقبل أن يشاركوا فى حكومة لايحبونها .. وكانت الدولة تعرف شعور أبى حنيفة نحوها . فأرادت أن تمتحن ولاءه خاصة وقد صدرت عنه

بضع كلمات تفوح منها رائحة التأييد للإمام زيد بن على زين العابدين الذى خرج على سلطة الدولة . فجاء العرض بمنصب القضاء بمثابة وسيلة لاختبار ولائه وامتحان شعوره نحو النظام الحاكم .. وكانت النتيجة على النحو الذى سردته عليك سلفاً ..

يزيد عالمنـــا وسيـــدنا

وسأروى لك نبذه سريعة من حياة واحد من هؤلاء العظام وان لم يبلغ نصيبه من الشهرة مبلغ مالك والشافعى وأبى حنيفه ولكنه كان من نفس طينتهم التى تستعصى على الالتواء .. والضعف .. إنه مفتى مصر الأول يزيد بن أبى حبيب الذى تولى منصب الافتاء فى بدايات الفتح الإسلامى لمصر ، ولحق عصر التابعين ، وسبق ظهور الائمة الأربعة المشهورين ، وتقول عنه كتب الفقه أنه كان حليماً عاقلا ، وأنه أول من أظهر العلم بمصر ، والمسائل والحلال والحرام ، وقبل ذلك كانوا يتحدثوا فى الترغيب والملاحم والفتن ، قال عنه الإمام الليث بن سعد «يزيد عالمنا وسيدنا» وقيل أنه أحد ثلاثة أسند إليهم عمر بن عبد العزيز الفتيا بمصر ..

ولك أن تعرف أن عالمنا وسيدنا يزيد بن أبى حبيب سودانى الأصل ، فأبوه من دنقله ثم انتقل مع السبى الذى

رافق جيوش الفتح بعد عودتها من بلاد النوبه فعاش بمصر ، وتنسم الريح العطرة التى خلفها كرام الصحابة من أمثال عبد اللهبن عمرو بن العاص ، وتشرب الفقه من منابعة الصافيه حتى آلت إليه الزعامة الدينية ، وكانت البيعه إذا جاءت لخليفة فأول من يبايع من أهل مصر عبد الله بن أبى جعفر ، ويزيد بن أبى حبيب .. واسمع هذه القصة التى يرويها عنه عبد الله بن لهيعة الذى تولى القضاء :

مرض يزيد بن أبى حبيب فعاده الحوثرة بن سهل أمير مصر (وكان طاغية محباً للدماء) فقال له الحوثرة : يا أبا رجاء ماتقول فى الصلاة فى الثوب وفيه دم البراغيث ..؟ فحول يزيد وجهه ولم يكلمه .. فقام .. فنظر إليه يزيد وقال تقتل كل يوم خلقاً وتسألنى عن دم البراغيث ..؟

وأرسل إليه زبان بن عبد العزيز .. أخو عمر .. أن يحضر إليه ليسأله عن شيء من العلم ، فما كان من المفتى إلا أن بعث إليه بهذه الكلمات : « بل أنت فائتنى .. فان مجيئك إلى زين لك .. ومجيئى إليك شين على » .

يـا أم مـالك

وما دمت بصدد الحديث عن اباء العلماء واعتزازهم بكرامة العلم الذى يحملونه فى صدورهم . وثباتهم على الرأى دون خوف من وعيد أو طمع فى وعد ، فقد كان ينبغى أن أحدثك عن محنة الإمام أحمد بن حنبل وهى ثرية وموحية ، لولا أننى أفضت فى الحديث عنها سابقاً ، وسردت عليك بعض جوانب المحنة التى تعرض لها هذا الإمام العظيم وخرج منها وهو أشد ثباتاً وأقوى جناناً .. ومادمت بصدد الحديث عن كرامة العلم والعلماء فارى من واجبى أن آسوق إليك هذه القصة التى تكشف لك جانباً ربما خفى عليك من حياة مشاهير الأدباء وهو الجانب الذى يتصل باعتزازهم وأنفتهم وكبريائهم . فضنوا بأنفسهم أن يتصعلكوا فى قصور الخلفاء فى وقت كانت فيه القصور هى مراكز الثقافة الرسمية فى الدولة . وكانت بمثابة وزارات الاعلام والثقافة فى العصور الحالية ، وكانت هى المنافذ التى يستطيع عن طريقها الأديب أن يبيع كتبه وينسخها .. وقد يصادفك كتاب وضعه الجاحظ لحساب الوزير الفتح بن خاقان . أو كتاب وضعه أبو حيان التوحيدى وأهداه إلى الوزير ابن سعدان .. ولكنك إلى جانب هذه النماذج سوف تصادف عينه من الأدباء تضن بعلمها أن يهدر فى غياهب القصور فحكمت على نفسها

بالشقاء والفقر ، من هذه العينة الأديب المعروف أبو على إسماعيل القالى ، صاحب (الأمالى) الذى أرغمته الظروف على أن يبيع كتابه (الجمهرة) حتى يتمكن من تسديد أجرة البيت التى تراكمت عليه . فاشترى الشريف الرضى الكتاب وعثر فوق غلافه على هذه الأبيات التى تنضح بالمرارة والألم :

أنست بها عشرين عاماً وبعتها
قد طال وجدى بعدها وحنينى
وما كان ظنى أننى سأبيعها
ولو خلدتنى فى السجون ديونى
ولكن لضعف وافتقار وصبية
صغار عليهم تستهل جفونى
فقلت ولم أملك سوابق عبرة
مقالة مكوى الفؤاد حزين
وقد تخرج الحاجات يا أم مالك
ودائع من رب بهن ضنين

تلك عينة من أصدقائى الذين تعرفت عليهم فى وعاء التاريخ .. فأحببتهم وأحبونى .. حتى لأكاد أشعر بهم يتحركون من حولى .

محنة الامام مالك

لم تهدأ الأحوال أمام قادة الانقلاب العباسى بعد نجاح ثورتهم .. فقد تهاوت عليهم الضربات ، وتناوشتهم الفتن والقلاقل .. وفى مستهل حكمهم انسلخت الاندلس ..لأول مرة . عن جسم الدولة الإسلامية العالمية عندما تمكن أحد أمراء البيت الأموى . عبد الرحمن الداخل . من الافلات من المذابح ، فهرب من الشام إلى الاندلس بعد رحلة أسطورية محفوفة بالمخاطر وتمكن من احياء ملك آبائه بمنأى عن السلطة المركزية فى بغداد . فأحدث بذلك شرخاً فى جسد الدولة كانت له ذيوله التى انتهت بضياع الاندلس كلها وخروجها من ديار الإسلام ..

ولم تقتصر متاعب العباسيين عند حد انسلاخ الأندلس وإنما هبت فى وجوههم الثورات فى شتى الامصار ويعنينا منها ثورة محمد النفس الزكية ، حفيد الحسن بن على بن أبى طالب لما لها من علاقة بمحنة الإمام مالك ، فقد آلت زعامة البيت العلوى إلى هذا الثائر العنيد ، بعد أن ذهبت عترة النبى بين شهيد وشريد ، وتركز فيه مطلب العلويين فى حقهم من الخلافة .

وكان العلويون قد تحالفوا مع أبناء عمومتهم العباسيين إبان تدبير الانقلاب ضد الدولة الأموية ولكن العباسيين

نجحوا فى اخفاء نواياهم حول اسم الخليفة المرتقب .. حتى لايفقدوا حلفاءهم .. وأكتفوا بأن أطلقوا عليه اسما رمزياً هو (الرضا من آل محمد) فلما نجح الانقلاب قطف العباسيون ثمرته فاستأثروا بالحكم وتنكروا لحلفائهم .. وأدرك العلويون انهم قد خدعوا .. فبدأوا من جديد يعدون للخروج على السلطة العباسية .

وفى عام ١٤٥هـ . زمن الخليفة المنصور . خرج محمد النفس الزكية من مكمنه . فاستولى على مدينة الرسول وصعد المنبر فألقى خطبة أكد فيها حقه ، وطالب الناس بأن يبايعوا له على أساس أن البيعة التى فى اعناقهم للمنصور هى بيعة باطلة ، لأنها أخذت كرها . ووقع جمهور المدينة فى ورطة فقهية .. كيف يتحللون من بيعتهم للمنصور وقد أقسموا عليها ..

قد تبدو هذه المسألة . فى نظر المسلم المعاصر . أبسط من أن تكون مشكلة فقهية .. فما أسهل أن يتنصل الناس من عهودهم ومواثيقهم .. ولكن فى ذاك العهد القريب من العصر النبوى حيث الناس أكثر تمسكاً بالقيم الدينية واشد احتراماً للعهود والإيمان . شق الأمر على المسلمين ، وكان لابد من الفتيا للخروج من المأزق .. ولم يكن فى مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم أقدر على الافتاء من الإمام

مالك فسأله الناس : هل يجوز نقض البيعة التى فى اعناقنا للمنصور ..؟ .

فأجاب بأن روى لهم حديث الرسول صلى الله عليه وسلم (ليس على مستكره يمين) فسارع الناس خفافاً بالانضمام إلى الثائر العلوى.

تقول الروايات التاريخية أن المنصور بعث رسولا إلى الإمام مالك يطلب منه الكف عن رواية هذا الحديث ولكن مالكاً لم يستجب . وكانت عيون المنصور تنقل إليه ما يدل على إصرار مالك على الرواية بحجة أنه لا يستطيع كتمان حديث إذا سئل عنه .. توقياً للنهى القرآنى الذى لعن من يكتم علماً. وأسرها المنصور فى نفسه ..

حتى إذا فرغ من مسألة الثورة العلوية وأجهضها استدار إلى مالك ليصفى معه الحساب ..

ولم يكن المنصور ساذجاً ليتولى بنفسه عقاب عالم جليل فى مكانة الإمام مالك ..رغم انه فعل ذلك بنفسه مع الإمام أبى حنيفة .. ولكن الأمر يختلف فأبو حنيفة كان واضحاً فى بغضه للعباسين .. وكان سافراً فى عطفه على خصومهم .. أما مالك فلم يثبت عليه أنه أيد خارجاً .. لقد أجاز للناس .. فقط .. أن يتحللوا من أيمانهم إذا كانت هذه الأيمان قد

أخذت قهرا .. وربما بدرت منه بعض العبارات التى يشتم منها رائحة التعاطف على حكم الأمويين بالأندلس .. ولكنه لم يكن يرى الخروج على الحاكم حتى لو كان ظالماً . وهذه مسألة سنوضحها عند الحديث عن آراء مالك فى شئون السياسة والحكم ..

شتان بين موقف أبى حنيفة وموقف مالك من السلطة الحاكمة .. وعلى قدر الاختلاف .. كانت درجة العقاب ..

لقد تولى المنصور بنفسه تأديب أبى حنيفة . أما مالك فقد أوكل أمره إلى عامله على المدينة جعفر بن سليمان فاستدعاه إلى بيت الأمارة .. ونزع عنه ثيابه باستثناء العورة ثم كتفه بالحبال والقاه على الأرض .. ثم وضع يديه فى العقابين .. وانهال عليه بالسياط على ظهره ثم شديده فانخلع كتفه .. (حتى ما يستطيع ان يسوى رداءه) ..

تبرئة المنصور

بعض الدراسات التاريخية تحاول أن تبرئ المنصور من جريمة الاعتداء على الإمام مالك .. وتضع وزرها على عاتق عامله ، وتستند فى ذلك إلى ما حدث بعد من اعتذار المنصور للإمام الممتحن وقسمه له بأن ما وقع تم بدون علمه ولكن إذا عرفنا شخصية المنصور فان هذا الاعذار يصعب

تصديقه فقد كان المنصور طرازاً فريداً فى شخصيته الجبارة التى تهيمن على كل أمور الدولة صغيرها وكبيرها .. وكان له من كثرة العيون ما يعرف به خائنة الأعين وما تخفى الصدور يذكر الرواة ان الإمام مالك وعظه يوماً فى افتقاد حال المسلمين .. فرد عليه المنصور : « انى أعرف الخفى حتى حتى من شئون بيتك » .. فكيف بهذا الذى يعرف خفايا البيوت تخفى عليه نية الاعتداء على إمام دار الهجرة ؟..

على أى حال ، يمكن تحديد أركان الجريمة فى الأطار التالى : أراد المنصور أن يلقن الإمام درساً فى الطاعة . ومعرفة الظروف الملائمة لإذاعة حديث المستكره والظروف غير الملائمة فلما تم له ما أراد .. لم ير بأسا من التنصل من تبعة ما حدث وتحميل المسئولية على واليه فى المدنية .. وهو تصرف نلمسه فى كل زمان ومكان حيث لا يجد بناة الدول حرجا من ارتكاب كل ما من شأنه تثبيت سلطانهم فى قلوب الرعية .. ثم تعليق المسئولية فى رقبة صغار المعاونين :

وفى هذا الصدد يقول الأستاذ على أدهم فى كتابه عن المنصور : « وهذا السلوك يتفق مع أخلاق أبى جعفر وسياسته برغم تقديره لمكانه الإمام مالك واجلاله له ، واحسب أن علينا أن نذكر أن أبا جعفر السياسى الداهية المطبوع كان

يرى أن لزوم الطاعة فى وقت تثبيت قواعد الدولة كان مقدماً على كل شىء ويسبق الاعتبارات جميعها ».

ان السؤال الذى يجب أن نتوقف عنده هو ما يلى : إذا كان المنصور لم يتحرج من الاقدام على أى فعل بهدف تثبيت قواعد الدولة ، والضرب على أيدى أى عالم يشتم منه رائحة التمرد أو الخروج على سلطانه .. فهل كان الإمام مالك من أولئك الداعين إلى مناوءة السلطان إذا بغى وطغى ؟

الشيخ محمد أبو زهرة فى كتابه (مالك حياته وعصره) يلخص لنا آراء مالك السياسية فيما يلى : كان مالك ينظر دائماً إلى المصلحة والعدالة وما يفضى إليهما فما يفضى إلى الفساد لايجوز ، وما يفضى إلى المصلحة والعدالة يجوز . وليس من المصلحة ولا العدالة اكراه الناس على ما لا يريدون .. ولقد سأله البعض عن شرعية الخروج على المنصور ، فقال لسائله ، ولعله محمد النفس الزكية : أتدرى ما الذى منع عمر بن العزيز أن يولى رجلا صالحاً بعده ؟ قال : لا .. قال مالك : « كانت البيعة ليزيد بن عبد الملك فخاف عمر إن بايع لغيره أن يقيم يزيد الهرج ويقاتل الناس ويفسد ما لا يصلح » ..

ويعلق الشيخ أبو زهرة فيقول : « وهكذا نجد مالكاً لايتجه إلى الصور المثالية لطريقة الاختيار ، بل يتجه

إلى الوقائع ، وما عليه حال الأمة ، فيرى أن المصالح الواقعة يجب أن تكون مقررة فى اعتبار الذين يحثون على الطاعة أو الخلاف وهو ينتهى من هذا إلى أن السكون خير من الخروج والانتفاض . وأن الابتعاد عن الفتن خير من الوقوع فيها ، وارشاد من غير خروج ،قد يحمل الحاكم على الجادة فيكون الصلاح من غير عبث وفساد .. وإذا كان الحاكم ظالماً يرى الصبر عليه ويرشده ، فليس صبره صبر المستكين الذى لايستنكر الظلم ، بل صبر الذى يعنى صلاح الناس ، وقد وجد أن الفساد يكون فى الخروج وأن حمل الظالم على العدل بالموعظة الحسنة وتذكيره أوامر الدين واجب .

لعبة السياسة

ارأيت إلى هذه الآراء يمكن أن تكون مبرراً للاضطهاد والتنكيل من جانب السلطان ؟ .. لقد كانت هذة الآراء .. بذاتها .. مجالا للغمز فى علاقة مالك بالسلطات الحاكمة فى عهده ، حيث كان يقبل عطايا الخلفاء ويغشى مجالسهم .. ويسارع إلى لقائهم ، وفى تحليله لشخصية مالك يصفه الاستاذ أمين الخولى بأنه «كان من أشد الناس مدارة للناس» ثم يعقب على ذلك قائلا : أنه قدر لا مفر منه ما دامت الحياة تجرى على سنن مقررة ، والانسان صناعة وراثته ..

وبيئته .. وهؤلاء الأئمة .. مهما يكن الأمر .. ليسوا إلا آدميين بكامل مفهوم الآدمية . . وهذا القدر من فهم مالك للانسان بجوانب شخصيته المختلفة هو الذى يكشف وجه الرأى الصحيح فى فهم صلته بالسياسة ، وصلة السياسة به . تلك الصلة التى لم يكن مالك وأمثاله ممن يستطيعون عدم التأثر بها مهما فعلوا » .

ولا تملك بعد أن تقرأ هذا التحليل للاستاذ الخولى إلا أن تصب اللعنات على حرفة السياسة التى نزلت بالكوارث والنكبات على كل من اقترب منها أو اتصل بها .. ولا تملك إلا أن تعذر الشيخ محمد عبده حين قال بعد أن نكبته السياسة : لعن الله فعل ساس .. ويسوس . .

على أى حال ، لما قام المنصور بالحج دعى إليه الإمام وكرمه .. وإليك رواية الامام نفسه عن هذا اللقاء ..

« .. لما دخلت على أبى جعفر . وقد عهد إلى أن آتيه فى الموسم — قال لى : والله الذى لا اله الا هو ما أمرت بالذى كان ، ولا علمته أنه لايزال أهل الحرمين بخير ماكنت بين أظهرهم . وانى أخالك أمانا لهم من عذاب ، ولقد رفع الله بك عنهم سطوة عظيمة ، فانهم أسرع الناس

إلى الفتن ، ولقد أمرت بعدو الله أن يؤتى أى الوالى على قتب — أى مهانا — وأمرت بضيق محبسه والاستبلاغ فى امتهانه، ولابد أن أنزل به من العقوبة اضعا فـ ما نالك منه فقلت — أى مالك — عافى الله أمير المؤمنين وأكرم مثواه) فقد عفوت عنه لقرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرابته منك قال : فعفا الله عنك ووصلك ..» .

وهكذا خرج الإمام من المحنة مكرماً،وزاد رفعة عند الخليفة وعند الناس ، أما الخليفة فمع ترضيه له على هذا النحو ، طلب منه أن يكتب إليه فيما يخص نفسه ، وفيما يكون فيه صلاح للناس ، ورفع ضيق أو حرج عنهم ، وطلب إليه أمراً جليلا آخر ، وهو أن يكتب أثار الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة ومجموع الاقضية والفتاوى لينشرها بين الناس قانوناً . فكان (الموطأ) أول كتاب مدون فى الفقه والحديث .. وعاش مالك بقية حياته فى المدينة (لم يغادرها طوال عمره) مكرماً محفوفاً بالمهابة والسكينة ، وتجاوز سلطانه حدود درسه . حتى كأنه الرقيب على العدل فى الرعية .

الغريب فى فنون التعذيب

من البداية ، أقول لك : لاتصاحبنى فى هذا الحديث إذا كنت مرهف الحس ، رقيق الحاشية ، متوقد العاطفة ، فأنا أدرك أنه حديث شديد الوطأة على ذوى النفوس المرهفة عميق الأثر عند أصحاب القلوب الرقيقة الذين لايطيقون مشاهد العنف ، ولا يتحمل وجدانهم رؤية الدماء وهى تسيل من شاة ذبيحة ، فما بالك بمشهد الجسد الإنسانى وهو يتلوى ويتوجع تحت لسع السياط .. وما بالك بانسان يرى أعضاءه تقطع إربا إربا ثم تلقى فى أتون مسجور...

حسبك أن تتمثل هذه المشاهد المروعة لتمتلئ نفسك نفوراً من عواقب الفحشاء والمنكر والبغى ، وتزداد إيماناً بحرمة الانسان ، وتزداد تشبثا بكرامة الانسان ، وتزداد يقينا بمعانى الحرية والعدل والاحسان كقيم إجتماعية لاتنصلح بدونها أمور الرعية ، ولاتستقيم بفقدانها علاقة الحاكم ، بالمحكوم ، ولا علاقة المحكومين بعضهم ببعض ، فالتعذيب والمثلة والتنكيل كلها بثور مرضية لا تطفح على سطح المجتمع إلا فى عهود القهر والتخلف والخواء الروحى . ومن مفاخرنا التى يجب أن نتيه بها على غيرنا أن الإسلام : ديننا السمح حرم المثلة ، وحفظ على الانسان حياته فلا تهدر إلا قصاصاً

واعتبر النفس الواحدة رمزا للبشرية جمعاء (من قتل نفساً بغير نفس فكأنما قتل الناس جميعاً . ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً) . ويكفيك أن تقارن هذه الحصانات المتشددة بما كان عليه العالم الجاهلى من إهدار واستهتار بحياة الانسان، ويكفيك أن تسترجع فى ذاكرتك مشهد السادة الرومان وهم يتحلقون ساحات المصارعة ، وجموع العبيد والخصوم والمؤمنين من أتباع المسيح تلقى وجبة سائغة للأسود والوحوش الفاتكة ، وما عليك إلا أن تقارن بين هذه التقاليد الرومانية وبين تعاليم القرآن وهى تسبغ الرحمة والتعاطف بين أفراد المجتمع البشرى وتأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذى القربى ، وتنهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، وما عليك إلا أن تسترجع حديث الرسول صلى الله عليه وسلم عن المرأة التى دخلت النار فى قطة حبستها حتى ماتت وتذكر حديث ابن عباس من أن النبى صلى الله عليه وسلم مر عليه حمار قد وسم فى وجهه .. أى كوى بالنار .. فقال صلى الله عليه وسلم : لعن الله الذى وسمه . وتذكر حديث ابن مسعود : كنا مع رسول الله فى سفر ، فانطلق لحاجته فرأينا حمرة .. نوع من الطيور .. معها فرخان . فأخذنا فرخيها فجاءت الحمرة تعرش (أى تحوم وتخفق بجناحيها) فجاء النبى صلى الله عليه وسلم فقال : من فجع هذه بولدها

ردوا ولدها إليها . ورأى صلى الله عليه وسلم قرية نمل قد حرقناها فقال : من حرق هذه ؟ فقلنا نحن فقال : إنه لاينبغي أن يعذب بالنار إلا رب النار.

فاذا كان هذا داب رسول الإسلام مع القطة والطير والنمل فما بالك بحدبه على النفس الانسانية من أن تتعرض لمثلة أو تنكيل.أو هوان .. إسمع إلى قول الصحابى الجليل أبى على سويد بن مقرن لقد رأيتنى سابع سبعة مالنا خادم إلا واحدة لطمها أصغرنا فأمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نعتقها واسمع إلى أبى مسعود البدرى وهو يقول : كنت أضرب غلاماً لى بالسوط ، فسمعت صوتاً . من خلفى : « أعلم أبا مسعود » فلم أفهم الصوت من الغضب فلما دنا منى إذا هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاذا هو يقول : « أعلم أبا مسعود أن الله أقدر عليك منك على هذا الغلام » فقلت لا أضرب مملوكا بعده أبداً . (وفى رواية : فسقط السوط من يدى من هيبته) ويمضى أبو مسعود فى روايته ، فقلت يا رسول الله هو حر لوجه الله . فقال عليه السلام :

أما لو لم تفعل للفحتك النار ، واسمع حديث أبى هريرة : بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بعث فقال : ان وجدتم فلانا وفلانا رجلين من قريش سماهما ،فأحرقوهما بالنار.

ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أردنا الخروج : « إنى كنت أمرتكم أن تحرقوا فلانا وفلانا .. وإن النار لايعذب بها إلا الله ، فان وجدتموها فاقتلوهما » .

وأصبحت هذه التعاليم النبوية السمحاء ، ملء قلوب الصحابة الأجلاء يحرصون على إفشائها وذيوعها بين الناس من ذلك أن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما مر على فتية من قريش قد نصبوا طيرا وهم يرمونه ، وقد جعلوا لصاحب الطير كل خاطئة من نبلهم ، فلما رأوا ابن عمر تفرقوا . فقال ابن عمر : من فعل هذا ؟ لعن الله من فعل هذا .. إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن من اتخذ شيئاً فيه الروح غرضاً (أى هدفاً يرمى إليه) . ومن ذلك ما يرويه هشام بن حكيم بن حزام رضى الله عنهما أنه مر بالشام على أناس من الأنباط وقد أقيموا فى الشمس . وصب على رؤوسهم الزيت ، فقال : ما هذا ؟ قيل يعذبون فى الخراج (وفى رواية حبسوا فى الجزية) فقال هشام : أشهد أنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : أن الله يعذب الذين يعذبون الناس فى الدنيا . فدخل على . الأمير فحدثه فأمر بهم فخلوا .

ولقد حرص الخلفاء الراشدون على إقرار هذه المبادىء فأخذوا يتعقبون الولاة والعمال فى الأمصار ، يرصدون

سلوكهم مع رعاياهم حتى يأمنوا عدم انحرافهم عن قواعد العدل والترفق بالناس . وحسبك أن تذكر وصايا الصديق إلى جيوش الفتح : « **لاتخونوا ، ولا تغلوا ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلا صغيراً ولاشيخاً كبيراً ولاامرأة ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكله ..** » . وحسبك أن تذكر قصة القبطى الذى شد الرجال من الفسطاط إلى مدينة الرسول ليشكو إلى الخليفة عمر . . ابن الأكرمين الذى لطمه على وجهه ، وهو لم يجشم نفسه مشقة السفر إلا لوثوقه من أن هناك أميراً عادلا سوف يقتص له من ابن الاكرمين . فما كان من الخليفة العادل إلا أن بعث يستدعى ابن العاص ، ليقول له تلك القولة الخالدة التى ازدان بها تاريخ الانسانية : « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟ » .

حسبك أن تذكر هذا وغيره من صور العدل والتراحم واحترام كرامة الانسان . لتدرك مدى الهاوية التى انحدر اليها الولاة والأمراء فى عصر لاحق على عصر الخلفاء الراشدين ، فتغشى عينيك صور التعذيب والتنكيل وتجرح فؤادك مشاهد المثلة والهوان . وسوف تخدش سمعك أخبار احتزاز الرؤوس وحرق الجثث ، ونبش القبور ، وصلب الأجساد الخامدة وهى متلفعة فى أكفانها .. ولا أدرى من أين تسربت هذه

النزعة الشريرة إلى نفوس القادرين على ارتكاب هذا المنكر إلا أن يكون الشر والخسة بذوراً متأصلة فى تكوينهم النفسى فلا يمنعهم عن فعلهم وازع من دين ولا رادع من عقاب ، ولا وشيجة من ذمة وقربى .. وإنما هى الرغبة الجامحة فى الانتقام ، والهوس الأعمى الذى يطمس على قلب الانسان فينتزع منه كل نبضة من عطف أو رحمة .

دهـــاء معـــاوية

وسنرى ان هذه العادات الذميمة لم تظهر مع بداية الحكم الأموى . فقد كان دهاء معاوية وقرب عهده بالنبى مانعان له من السقوط فى براثن هذا العمل المنكر حتى لو كان عليه قادراً .. فهو لا يسمح ليده أن تمتد بسوء إلى أكابر خصومه وإنما يوصى ابنه يزيداً « بان يفتك بعبد الله بن الزبير ويقطعه إرباً إرباً إن وقع فى يديه » فهو يحيل الوزر على وريثه ، ويمضى هو إلى ربه بخيره وشره ليبدأ من بعده عصر جديد هانت فيه الحرمات ، واستبيحت دماء المسلمين للمسلمين ، حتى بلغت المأساة ذروتها فى كربلاء ، وما عليك إلا أن تتمثل ساحتها العارية وقد تناثرت فيها أشلاء الحسين ومعه اثنين وسبعين من أهله . وما عليك إلا أن تتخيل القوم وهم ينكبون على الاجساد الطريحة فى العراء يحتزون منها الرؤوس

ثم يعلقونها على أسنة الرماح يطوفون بها شوارع الكوفه ومنها إلى دمشق فى موكب يفتت القلوب هلعا ورعباً ..

قبلها ، كان مسلم بن عقيل بن أبى طالب ، ابن عم الحسين ورسوله إلى أهل الكوفه ، وقد وقع أسيراً فى يد ابن زياد فأمر به إلى أعلى القصر ، فضربت عنقه فسقطت رأسه فى رحبة القصر ، ثم سقط الجسد ، أما رأسه فبعث به إلى دمشق ، وأما جسده فصلب ...

بعدها ، فى عهد هشام بن عبد الملك ، خرج زيد بن على زين العابدين ، ساعياً إلى طلب الخلافة ، فتوجه إلى المدينة واتخذها مركزاً لدعوته؛ ولكن أهل الكوفة تبعوه وحثوه على الذهاب إليهم فعاد إلى الكوفة حيث كشف عن هدفه. فتصدى له واليها يوسف بن عمر الثقفى ، فلم يلبث أتباع زيد أن تفرقوا عنه وخذلوه (صورة أخرى من كربلاء) فحارب فى نفر قليل فأصيب بسهم فى جانب جبهته اليسرى فحمله بعض أتباعه المخلصين له، وحاولوا إخراج النصل ولكنه توفى من ساعته ، فدفنوه فى ساقية ماء وغطوا قبره ببعض الأعشاب ، ولكن الوالى عرف موضعه فاستخرجه وقطع رأسه فأرسله إلى دمشق ، وصلب جسده عارياً على جذع نخله بالكوفه ، وظل مصلوباً خمسين شهراً حتى أمر

الوليد بن يزيد باحراقه ، وأذرى رماده فى الرياح على شاطئ الفرات .. ولم يكن حظ يحيى بن زيد بأفضل من حظ أبيه . فقد خرج منكراً مظالم الامويين ، ولكنه قتل فاحتزوا رأسه وبعثوا بها إلى الوليد بن يزيد ، أما جسده فصلب فى خراسان ، وظل مصلوباً إلى أن قام أبو مسلم الخراسانى بانقلابه لصالح العباسيين فأنزل جسد يحيى ودفنه .

ولما كان العنف يؤدى إلى العنف والدم يغرى بمزيد من الدماء . فان العباسيين لم يكونوا بأقل من أسلافهم الامويين تعطشاً إلى الدماء ، وقسوة فى التنكيل بخصومهم ومن وقع فى أيديهم من بقايا البيت الأموى وكان لأبى جعفر المنصور السبق فى هذا المضمار ، فقد كان يأخذ بالشبهة ، ويقتل بالظنه ، وكان شعاره المعروف (من اتهمته فاقتله (سبيله إلى ازهاق ارواح العديدين من القادة والمفكرين والوزراء ولم تكن الرحمة تعرف إلى قلبه سبيلا وهو يمارس أبشع أنواع التعذيب ضد ضحاياه قبل قتلهم ، ويمكن القول أن أسلوب التعذيب كان سمة سائدة فى عهد المنصور ، يمارسه عماله واتباعه على النحو الذى كان يرضى سيدهم . ولاغرابة فى ذلك فالناس على دين ملوكهم .

ولم يتورع الخليفة المنصور عن أن يطبق طريقته فى التعذيب مع أشد الناس إليه قربى ، وهو عمه عبد الله بن على

الذى خرج عليه ثم استسلم فغدر به المنصور وتحايل على النكث بعهد الامان الذى قدمه له ، ثم دفع به إلى أحد أتباعه هو أبو الأزهر المهلب بن أبى عيسى . فتفتق ذهنه الشرير عن طريقة مسرحية يتخلص بها من ضحيته دون أن يتحمل وزر دمه ، فدبر تمثيلية تظهر الرجل فى مظهر الفحش ليحل دمه . فدخل عليه وأخذ معه جارية له ، فبدأ بعبد الله فخنقه حتى مات ثم مده على الفراش ، واستدار إلى الجارية ليخنقها ويطرحها عارية إلى جواره فى الفراش. وعندما أدركت الجارية ما سيحدث لها استغاثت به أن يقتلها بطريقة غير الخنق . فقالت : يا سيدى قتلة غير هذه . فكان أبو الأزهر .. ويبدو أنه كان محترفاً فى إزهاق الأرواح .. يقول : ما جزعت لأحد قتلته غيرها .. وبعد أن فرغ منها وضع جثتها على الفراش بجانب جثة عبد الله . وأدخلت يده تحت جنبها ، ويدها تحت جنبه كالمتعانقين ، ثم أحضر القاضى ابن علام وغيره فنظروا إلى عبد الله والجارية على تلك الصورة فتقرر قتلهما رجماً ، فأمر بالبيت فهدم عليهما ..

وهكذا تكتشف أن لعنة التنكيل والبطش لحقت بالسادة والاشراف كما لحقت بالموالى والاتباع وان رقاب القادة من أمثال أبى مسلم الخراسانى لم تفلت من حز المواسى ، كما لم تفلت رؤوس قتيبة بن مسلم ومحمد بن القاسم من أيدى

سليمان بن عبد الملك ، إنما هى الرغبة فى توطيد أركان الملك على جماجم الحلفاء والأنصار ، وان هى إلا الاستهانة بحياة الانسان وكرامته من أجل الجاه والسيادة والتفرد بالحكم

فنــــون التعـــذيب

وسأروى لك بعضاً من فنون التعذيب التى تفتق عنها عقل الانسان وهو يسعى حثيثا إلى تدمير أخيه الانسان وتحطيم كرامته واذلاله ، وإذا كانت البشرية قد سعدت بنتاج أفكار العلماء والمخترعين والمكتشفين .. فانها شقيت بما جلبته الروح الشيطانية التى تلبست بعض الناس ، فأكسبتهم قدرة هائلة على ممارسة الشر والاستمتاع به ..

وليس من شك فى أن هذه النزعة الشريرة هى من افراز الشق المظلم فى نفس الانسان ، فبات التعذيب خاصية انسانية تميزه عن سائر الكائنات ، ومن المؤكد أنك لم تشاهد ولم تصادف حيواناً جرؤ على تعذيب حيوان مثله ، إنه قد يفترسه وقد يلتهمه مدفوعاً بغريزة حب البقاء .. ولكنه أبدا لا ينكل به ولا يستمتع بتعذيبه كما يفعل بعض من بنى البشر. ويستدل علماء الحيوان على ذلك بأن الأسد . على سبيل المثال .. لا يأكل الجيفة ، ولا يسمح لنفسه بالتهام فريسة إلا إذا عضه الجوع ، وهو عندما يفعل فانه .. بالقطع لا يشعر

بتلك السعادة المريضة التى تنتاب بعض الناس وهم ينكبون على أجساد بنى جنسهم يمزقونها تمزيقاً قبل أن تفيض أرواحهم .

وحتى لو افترضنا جدلا أن حيواناً فعل مثل هذا الفعل المزرى ، فلن يثير ذلك فى نفوسنا شيئاً من التقزز أو النفور ، فيكفى الحيوان مهانة انه كائن محروم من نعمة العقل ، ومحروم من نعمة العاطفة والمشاركة الوجدانية ، وكلها من خصائص البشر . فما بالك بالانسان الذى لايتورع عن تمزيق جسد أخيه بالسياط أو الكلابات أو الصدمات الكهربائية أو أعقاب السجائر الموقدة أوغيرها من وسائل وما بالك بهذا الانسان وهو يفعل ذلك دون أن تدمع له عين أو يهتز له ضمير .. بل هو يفعل جريمته عن اقتناع وعن لذة واستمتاع وهو ينتزع حياة ضحيته نفساً بعد نفس ونبضة نبضة ، كأنما يضن عليه أن يلفظ أنفاسه دفعة واحدة ..

ولقد سردت عليك فى حديثى السابق طرفاً من أشكال النكال والمثلة التى تسربت إلى المجتمعات الإسلامية مثل احتزاز الرؤوس وصلب الأجساد وتقطيع الأوصال وحرق الأطراف ، وقلت لك أن هذه الجرائم جاءت على النقيض من تعاليم الإسلام الذى أمر بالعدل والاحسان ودعا إلى

التراحم والتعاطف بين أبناء المجتمع البشرى الذى ينتمى كله إلى ذكر وأنثى وعرضت عليك شيئاً من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم التى تحرم التعذيب وتجعل من استخدام النار فى التعذيب حقاً مقصوراً على صاحب النار يعذب بها من يشاء من عباده المشركين والكافرين والضالين القابعين فى عرصات الجحيم . ولكن بعضاً من طغاه البشر نصبوا من أنفسهم آلهة .. وجعلوا من الناس عبيدا . وأضفى هؤلاء الطغاة على أنفسهم صفات هى من خصائص الحق المطلق التى اختصها الله لنفسه وحرمها على سائر المخلوقات وأنت تستطيع أن تلمس هذه الأشكال عند النظم التى تأخذ بنظريه التفويض الآلهى ، والتى ترى فى الحاكم ظلا لله على الأرض أو امتداداً لسلالة الآلهة كما كانت الفرس تنظر إلى ملوك الأسرة الساسانية التى أطاح بها الإسلام . أو النظم التى كانت تسود الدول الأوروبية قبيل الثورة الفرنسية الكبرى .

***

**** من أين وكيف تسربت هذه العادات الذميمه — عادات التعذيب والتنكيل إلى المجتمعات الإسلامية ؟.**

يخيل إلى أنها تسللت من المجتمعات الأخرى بعد أن اختلط العرب المسلمون بالشعوب والأمم الأخرى التي كانت أسبق من العرب إلى نظم الحكم وأشكال الدول ، وبالتالى فإنها كانت أعرق فى ممارسة أساليب البطش التى كانت عرفاً سائداً فى تلك العهود السالفة .

ولم يعرف عن العرب فى جاهليتهم انهم كانوا يمارسون شيئاً من التعذيب ضد أعدائهم ، وقصارى ما بلغوه فى هذا الصدد ما رواه لنا القرآن الكريم من وأدهم البنات خشية العار أو قتلهم أطفالهم خشية الفقر والاملاق . وأيا كانت بشاعة هذا الصنيع فهو أمر يختلف عن عمليات التعذيب التى تمارس ضد الخصوم والأنداد ، وهو ما سوف نشهده ونراه على أيدى سادات قريش وهم يعذبون من بأيديهم من العبيد والموالى الذين تجرأوا على اعتناق الإسلام من أمثال بلال وياسر وسمية .. ولكن هذه الموجة الغاشمة لم تستمر طويلا فقد انحسرت جزئياً بتدخل سراة المسلمين وشرائهم هؤلاء العبيد ، ثم عتقهم .. وانحسرت نهائياً بانتصار الإسلام وهزيمة الشرك . أوقل بانتصار القيم الانسانية المضيئة واندحار الكفر والطغيان . ولن تصادفنا من حوادث التنكيل خلال العصر النبوى سوى حادثة هند بنت عتبة التى تجرأت — يوم أحد —

على انتهاك حرمة جثمان الشهيد الكريم حمزة بن عبد المطلب عم النبي صلى الله عليه وسلم . فبقرت بطنه وأخرجت كبده ولاكتها ثم لفظتها ..

باستثناء هذا الحادث المنكر ، لم يذكر لنا الرواة شيئاً ذا بال عن اقدام قريش أو غيرها من قبائل العرب على ارتكاب هذا الصنيع الذى سوف يصدم نفوسنا ويؤذى أبصارنا كلما توغلنا فى قراءة التاريخ الإسلامى فيما بعد عهود الخلفاء الراشدين وبعد مضى فترة من صدر الدولة الأموية ، وان دل ذلك على شيء فانما يدل على أن العرب استوردوا هذا الفعل المذموم ضمن ما استوردوه من أخلاق الامم الأخرى التى اختلطوا بها فى عصر الفتوحات الكبرى.

وكان التعذيب شيئاً معروفاً ومقننا لدى اليونان والرومان وتبيح القوانين المعمول بها فى تلك الأزمنة للسادة قدراً كبيراً من حرية التصرف ازاء عبيدهم .. ويدخل فى إطار هذه الحرية قطع الأعضاء أو سمل العين أو تعذيب العبد إذا ارتكب شيئاً يقع تحت طائلة القانون ، وكانت الأعراف الحربية تبيح للجيوش المنتصرة انتهاك حرمة البلاد المفتوحة وارتكاب ما يشاء الغزاة من أعمال السطو والنهب وهتك الأعراض ..

كل هذه الأعمال حرمها الإسلام .. وحرمها نبي الإسلام ، وحملتها وصايا الخلفاء الراشدين إلى الجند وهم ينطلقون إلى أركان الدنيا رافعين لواء الإسلام ، وبقيت هذه التعاليم موضع التقدير والالزام خلال العهد الرشيد ، حتى إذا اتسعت رقعة الفتوح فى عهد عبد الملك ومن تبعه من خلفاء البيت المروانى بدأ القادة يتخففون من هذه التعاليم .. ولا يلزمون أنفسهم بما أمرهم الإسلام أن يلتزموا به ، ولا يتقيدون بالاعراف والتقاليد التى جاء بها الإسلام لتنظيم شئون الفتح . وراحوا يتأثرون بما كانت عليه الأمم الأخرى من غلظة فى الخلق وجفاء فى الطبع وأخذوا يقلدون سلوكهم ويصنعون صنيعهم . بل راحوا يتفوقون عليهم ، ويضيفون إلى فنون التعذيب ما جادت به قرائحهم ، وكان استحداث الأديب الوزير محمد بن عبد الملك الزيات لآلة التنور دليلا على أن هذا الأمر شغل بال المثقفين كما شغل بال غيرهم من رجال الحكم والحرب . فلم يتوانوا عن كشف أساليب جديدة للتعذيب . وعندما أصبح للترك صولة ودولة بعد عصر المعتصم خرجوا على غيرهم بتقليد جديد من تقاليد المثلة والتنكيل ، ونعنى به (سمل العينين) ويقول بعض الرواة انهم أخذوا هذا التقليد المذموم عن اليونان ، ويقول آخرون انهم نقلوه عن الرومان ، وأيا كان المصدر الذى

أخذوه عنه ، فان سمل العينين أصبح سمة من سمات المجتمع العباسي فى عصوره المتأخرة . استحدثه الترك وتفننوا فى الخلفاء وفى الأمراء وفى كل من يعترض سبيلهم أو يقاوم بطشهم واستبدادهم بشئون الحكم. فكانوا يأتون بضحيتهم مقيداً بالأغلال ثم يضعون قطعة من الحديد فوق النار حتى تصبح جمراً أحمر ، فيحملها أحدهم ويقترب بها من وجه الضحية ، بينما يقوم آخر بفتح عينيه غصباً .. عندئذ يقترب الوهج الأحمر من المقلتين ، وما هي إلا برهة أو تزيد حتى يذهب سواد العينين ويتحول إلى بياض .. وبعدها يضحي المسكين كفيفاً محروماً من نعمة البصر .

فعل الترك ذلك مع بعض الخلفاء .. وفعل الفرس نفس الصنيع مع الخليفة المستكفى ، ففى عام ٣٣٤ هجرية سار معز الدولة بن بويه من الأحواز إلى بغداد فاحتلها ، ومع أن المستكفى رضخ لهذا الاحتلال وسلم مقاليد السلطة الفعلية إلى الغازى الجديد ، إلا أن معز الدولة سمل عينية وخلعه وسلبه من كل حول وطول بما فيها راتبة الشهرى . فكان المستكفي يقف على أبواب المساجد يستجدى الناس ويستعطفهم ويقسم لهم أنه كان خليفتهم حتى يعطوه شيئاً يتبلغ به .. فكان بعضهم يصدق فيتصدق عليه . وكان

أخرون يكذبونه ولا يتصورن أن يكون ذلك مصير الخليفة ...

وبعد الأتراك ، جاء المغول ففاقوهم بشاعة ونكراً ، وجاءوا بأساليب لم تكن معروفة من قبلهم ، ونقلوا إلى المجتمعات الإسلامية أفظع ما عرفته الشعوب الأسيوية الرعوية من فنون التمثيل والقسوة كالتوسيط ، وهو ضرب الرجل بالسيف ضربة واحدة فى وسطه فتقسم جسده إلى نصفين . ومن أبشع ما ابتدعه المغول من وسائل التعذيب تلك الطريقة الشيطانية التى سلكوها مع الملك الصالح ابن بدر الدين لؤلؤ حاكم الموصل ابان الغزو المغولى ، وكان الصالح قد مالأ هولاكو اثناء زحفه على الموصل ولكنه انقلب عليه ، فأثار هذا التصرف حفيظة هولاكو وأمر بقتله . ان وقع .. بطريقة لم يسبق لها مثيل حتى يكون عبرة لغيره من الامراء الذين يفكرون فى الخروج على السيادة المغولية . فلما وقع الصالح فى أيدى المغول طرحوه أرضاً ثم دثروه بقطعة من قماش الخيام السميك بعد أن دهنوا جسده العارى بكميات هائلة من شحم الضأن ، وبعد أن ربطوه القوا به تحت أشعة الشمس الحارقة ، وما هى الاساعة أو بعض حتى ساحت الشحوم ، وتحولت البكتريا المستكنة فيها إلى ديدان وحشرات أخذت تزحف على جسد

المسكين وتنهش فيها عضا وقرصا .. والمسكين يتلوى من فظاعة الألم دون أن يملك لهذا الألم دفعاً .. وظل على هذه الحال الشنيعة حتى فاضت روحه بعد أيام من العذاب المقيم .

قصة مشابهة لهذه القصة الأليمة سوف تصادفك فى تاريخ المغرب الأقصى أثناء عصر الدولة المدرارية الخارجية التى أسسها عيسى بن يزيد المكناسى الذى بنى عاصمة دولته فى سجلماسة وقسم مياهها وغرس فيها النخيل ولاتزال هذه المنطقة (تافيلالت) من أهم مراكز انتاج التمور فى المغرب ، ولكن يبدو أن عيسى هذا — وكان أسود البشرة أخذ يستأثر بالأموال فى اخريات أيامه ولا يسلك مع رعاياه مسلك الحاكم الصالح مما أثار عليه حفيظة الرعية بزعامة رجل يدعى أبو الخطاب الصفرى . ولم يتحرج (هذا الرجل أن قال لأصحابه فى مجلس عيسى بن يزيد : « السوادن كلهم سراق حتى هذا .. » وأشار إلى عيسى ، فلما علم الأمير أمر به فأخذوه وشدوا وثاقه إلى جذع شجرة فى الجبل بعد أن دهنوا جسمه بطبقة من العسل ، وتركوا النمل والنحل والبعوض والحشرات تهرى جسمه لسعاً حتى نهشته نهشاً ومزقته تمزيقاً ..

وأنت تستطيع أن تصادف العشرات والمئات من هذا القصص فى كتب الرواة ، وسوف تخدش انسانيتك أمثال

هذه الأحداث المريعة . وليس المطلوب منك أن تغلق جوانحك على الألم النفسي ولا أن تكتفي بشعور الامتعاض ازاء ما سمعت أو قرأت .. ولكن أن تملأ رئتيك بعبير الرحمة ، وأن تملأ قلبك بحب الانسانية ، وأن تزداد تمسكاً بمبادئ الحرية والعدل والتراحم التي جاء بها الإسلام ، وان تلزم نفسك بهذه المبادئ السامية وتلزم بها غيرك ، فلا يكون أفراط ولا تفريط ، وإنما الزام والتزام بشرعة الحق والانصاف ..

الرسالة التي قتلت صاحبها

.. وهذا شهيد من شهداء الفكر ، لا تزال قضيته تشغل بال المؤرخين بسبب الظروف الغامضة التي أحاطت به ، والدوافع التي أدت إلى مقتلة غيلة ، وبصورة لم يشهد لها تاريخ القتل والتعذيب مثيلا ، وإلا فما بالكم برجل تقطع أطرافه إربا اربا .. وهو حي ثم تلقى في النار ليراها وهي تحترق .. ثم يلقى بما تبقى منه في الجحيم المسجور ..

هذا ما حدث للاديب العظيم عبد الله بن المقفع على يد سفيان بن معاوية والى البصرة من قبل الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور ، ولا يختلف المؤرخون على أن المنصور هو الذي دبر عملية الاغتيال ، وأشعل الضوء الأخضر — بل

الأسود — لعامله حتى يتخلص من ابن المقفع .. ولكنهم يختلفون حول الأسباب ..

فمنهم من يرى أن شبهة الزندقة لحقت بابن المقفع ، خاصة أنه كان حديث عهد بالاسلام ولكن يرد على ذلك بان تهمة الزندقة كان عقابها الاعدام علنا .. ولا تستلزم تدبير جريمة فى الظلام ..

والبعض الأخر يرى أن السبب الذى أثار ضيق المنصور على ابن المقفع ، أن الأخير ركب متن الشطط عندما دبج كتاب الأمان لعبد الله بن على حتى يوقعه المنصور ، فضمنه عبارات جارحة لم يكن يليق أن تنسب إلى لسان خليفة فى مكانة المنصور وتلك قضية هامشيه تستحق التوضيح .

كان عبد الله بن على قد تمرد على ابن أخيه المنصور أثر توليه الخلافة ، لاعتقاده بأن المنصور غدر به ونحاه عن ولاية العهد ، وقاد جيشاً كبيراً من جنود الشام ، ولكنه هزم على يد أبى مسلم الخراسانى فلجأ إلى أخيه عيسى بن عبد الله حيث يقيم فى البصرة ، وذهب عيسى يشفع لاخيه عند المنصور فأظهر استعداد طيباً للصفح عن عمه .

كما وافق على ان يوقع له (كتاب أمان) حتى تقر نفسه وتزداد طمأنينة ، وعاد عيسى إلى البصرة وطلب من كاتبه

ابن المقفع .. أن يعد الكتاب المذكور حتى يوقعه المنصور ولما كان عيسى يعلم ان الغدر والخديعة من ابرز صفات المنصور فقد شدد على كاتبه ان يدبج الكتاب بكل عبارات الحيطة والاحتراز حتى لا يترك للمنصور ثغرة ينفذ منها للغدر بعمه بعد توقيع الوثيقة .

واستجاب ابن المقفع لطلب سيده ، وعكف على اعداد الكتاب كما أمر ، ولكنه .. كما يقول الدكتور أحمد شلبي .. ركب متن الشطط والاسفاف ، فما كان له أن يكتب على لسان الخليفة عبارة مثل :

« وان أنا نلت عبد الله بن على بمكروه .. فانا نفى من محمد بن على بن عبد الله (ابيه) ومولود لغير رشده أى ولد سفاح وزنا وقد حل لجميع أمة محمد خلعى وحربى والبراءة منى ، ولا بيعة لى فى رقاب المسلمين ولا عهد ولا ذمة ، وقد وجب عليهم الخروج من طاعتى .. وأنا متبرئ من الحول والقول ومدع ، وكافر بجميع الاديان ألقى ربى على غير دين ولا شريعة ، محرم المأكل والمشرب والمناكح والمركب والرق والملك والملبس على الوجوه والاسباب كلها .. الخ ».

فهل كان من المعقول أن يتقبل المنصور ، وهو المشهور بالجبروت ، مثل هذه العبارات ..؟ .

وما حدث هو أن المنصور لم يكد يقرأ الكتاب حتى غلى الدم فى عروقه ، وسأل عن كاتبه ، فقيل له : ابن المقفع .. فقال : فما أحد يكفينيه .. ؟ وكانت هذه العبارة القصيرة تعنى الحكم بالاعدام على ابن المقفع .. وعهد إلى سفيان بن معاوية والى البصرة بتولى الأمر وما أن تلقى سفيان الاشارة حتى هش وبش. ووجدها فرصة لاتعوض لينفس عن حقده القديم على ابن المقفع ، وأخذ ينسج شباكه حول فريسته حتى ظفر بها ، وعندما وجد ابن المقفع نفسه داخل الاسر استجار بالله ان يصفح عنه ، ولكن الرجل لم يرق قلبه ، وقال له : أمى مغتلمة كنا كنت تقول ان لم اقتلك قتلة لم يقتل بها أحد .. وتفتق ذهنه عن ابشع فنون التعذيب ، فأمر بتنور اشعلت فيه النيران ، وجعل يقطع من جسم ابن المقفع شريحة بعد شريحة .. وهو حى .. ويلقى بالشريحة فى التنور ليرى المسكين أطرافه كيف تقطع ثم تحرق ، قبل أن تحرق بقيته دفعة واحدة آخر الأمر .

على هذا النحو البشع . تم القضاء على قبس من النور الوهاج أضاء فى سماء الثقافة العربية علماً غزيراً ، وحكمة بالغة ، وبلاغة فائقة . ولم يكتمل . . بعد عمره أربعين ربيعاً . وصفه الجاحظ فقال «كان جوادا فارساً جميلا» وقال

عنه محمد بن سلام : «سمعت مشايخنا يقولون : لم يكن للعرب بعد الصحابه أذكى من الخليل ابن أحمد ولا أجمع ، ولا كان فى العجم أذكى من ابن المقفع ولا أجمع » .

ويقول عنه أحمد أمين : أنه من أقوى الشخصيات فى عالم الأدب العربى قوى فى خلقه ، قوى فى عقله وعلمه ، قوى فى لسانه أما خلقه فنبل وكرم ، وتعهد لذوى الحاجات يواسيهم ، وتقدير دقيق للصداقة ، ومراقبة شديدة لنفسه يحملها على الأجدر والأنبل ، ورغبة شديدة فى اصلاح الراعى والرعية خلقيا وإجتماعياً .. إلى ظرف الخاصة ، والتمسك بأداب اللياقة ، ومراعاة الدقة فيما يتطلبه الذوق .

وإذا كان هناك شبه إجماع بين المؤرخين القدامى على أن (كتاب الأمان) هو السبب المباشر فى حنق المنصور عليه والايعاز باغتياله ، إلا أن بعض المفكرين المحدثين ، ومنهم طه حسين ، يغزو حقد المنصور إلى (رسالة الصحابة) التى كتبها ابن المقفع للمنصور ، ووضع نفسه فيها موضع الناقد ، ثم صاغ هذا النقد فى صورة بلاغية رائعةفيها أجلال واحترام ودعاء ، ولكن النقد لم يخف على المنصور ، فحنق عليه إذ ان الحاكم المستبد يكره النصح ويضيق بالنقد مهما كان رقيقاً مهذباً ، ويصف طه حسين هذه الرسالة بأنها كانت (برنامج ثورة) .

فما هو مضمون (رسالة الصحابة) وماذا كانت تحوى من أفكار اثارت كل هذا الحنق على صاحبها حتى أودت بحياته رغم أنها لم تكن موجهة إلى المنصور شخصياً ، وإنما هى مجموعة نصائح إلى أى (أمير للمؤمنين) يتولى شئون المسلمين ؟ .

لقد أورد ابن طيفور نص هذه الرسالة فى مخطوطه المحفوظ بدار الكتب المصرية (المنثور والمنظوم) كما نشرت فى مجموعة (رسائل البلغاء) و (جمهرة رسائل العرب) التى جمعها الاستاذ أحمد زكى صفوت . كما لخصها تلخيصاً وافياً العلامة أحمد أمين فى الجزء الأول من (ضحى الإسلام) الذى سوف نعتمد عليه فى القاء الضوء على هذه الرسالة التى قتلت صاحبها ..

والمقصود بالصحابة فى رسالة ابن المقفع ليس صحابه الرسول صلى الله عليه وسلم كما قد يتبادر إلى الذهن ، وإنما هو يقصد صحابة الخلفاء والولاة أو بتعبير العصر (بطانة الحاكم) والمقربين إليه من وزراء وحجاب ومستشارين وكتاب . ممن يحيطون بالراعى فيكون لهم التأثير الأكبر فى إدارة شئون الرعية ، ولذلك فهو ينصح الخليفة بأن يتخير صحابته من ذوى الرأى والأمناء العدول ، ولا يجعل من خاصته إلا رجلا ، أتى بمكرمة عظيمة ، أو رجلا له ميزة

من قرابه أو حسن بلاء ، أو رجلا له من الشرف وجودة الرأى والعمل ، ما يؤهله لذلك ، أو رجلا فقيها مصلحاً ينتفع الناس بفقهه وصلاحه ، وعليه أن يقصى الوصوليين الذين يتخذون من الشفاعات وسيلة للقرب من السلطان واقتناص المناصب .

بعد ذلك يتعرض ابن المقفع لاصلاح الإدارة ، وابراز أوجه النقص فى تسيير شئون الدولة ، وفى طليعتها (شئون الجند) فدعا إلى تنظيم أفكارهم وأن يكون لهم دستور أو قانون يحيطهم علماً بما يجب أن يعرفوه ، ويبين لهم المباح من الفعل والممنوع ، وشكا من أن ترك الأمر من غير قانون قد أدى إلى الفوضى ، وجر إلى المغالاة فى الأمر بطاعة أمير لمؤمنين ، حتى قال بعض القواد : لو أمر أمير المؤمنين أن نستدبر القبلة بالصلاة لسمعنا وأطعنا . . وقد ساقه هذا القول إلى بحث أوامر الخليفة ، وما يطاع منها ومالا يطاع ، وذكر القاعدة الفقهية «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق » .

والذى رآه ابن المقفع : ان الخليفة يطاع فيما لا يطاع فيه غيره ، وبيان ذلك : أن هناك فرائض وحدوداً بينها الله وفى هذا لا يطاع أمير المؤمنين لو أمر بما يخالفها ، وهناك اشياء كثيرة من شئون الناس لم يأت فيها نص بل تركت لعقل

الناس واجتهادهم . وهذه متى اجتهد فيها ولاة الأمر ورأوا فيها رايا وجبت طاعتهم — كاعلان حرب واسترداد جيش وشروط صلح .. وليس للناس فى هذا إلا الاشارة عند المشورة ، والاجابة عند الدعوة .

وفى شأن الجند ، أيضاً ينصح ابن المقفع بان يحال بين الجند وبين إدارة الشئون المالية ، فلا يتولى القادة شئون الخراج فى الأمصار (لأن ولايه الخراج مفسدة للمقاتلة) وهو نظر صائب لأن كثيرين من هؤلاء القواد اغتروا بما فى أيديهم من مال وما تحت أيديهم من جند فخرجوا على الدولة . وهو ينصح الخليفة بأن يدقق فى اختيار القادة ، وأن يعيد النظر فى السلم الإدارى فسيجد أن بعض المرءوسين أكفأ من رؤسائهم ، كما ينصح الخليفة بتثقيف الجند ثقافة علمية وخلقية ودينية ، وتعويدهم الأمانة والعفة والتواضع واجتناب الترف .

وبعد اصلاح الجيش ، ينتقل ابن المقفع إلى اصلاح القضاء متأثراً بما كان لدى اجداده الفرس من نظم وقوانين يلتزم بها القضاة عند صدور احكامهم ، وانتقد فوضى القضاء وذكر ان القضاة يحكمون باجتهادهم مما نشأ عنه صدور أحكام متناقضة حتى فى البلدة الواحدة تبعاً لحكم القاضى ،

واقترح لذلك علاجا ، وهو أن ترفع إلى الخليفة كل الأقضية والمسائل التى يحدث فيها الخلاف ، مع ذكر حجة كل فريق ، ثم يعمد الخليفة إلى هذه الحجج والبراهين فيختار ما يراه صواباً ثم يدون ذلك فى كتاب وتعمل منه نسخ ترسل إلى الأمصار ، ويلزم القضاة بالحكم به ، فاذا جدت حوادث طبق عليها نفس المنهج ، ووجب على كل خليفة يأتى بعد أن يدخل على هذا القانون ما يجد وما تدعو إليه الحاجة .. وهكذا إلى آخر الدهر .

فمجمل رأى ابن المقفع فى اصلاح القضاء وضع قانون رسمى تجرى عليه المملكة الإسلامية فى جميع انحائها ، وهذا القانون يرجع فيه إلى ما يرشد إليه العقل فى معنى العدالة ، وهذا فيما عدا ما ورد فيه نص مجمع عليه .. من كتاب أو سنة .. فأما ما ورد فيه نص مختلف فيه ، أو ما كان مبنياً على قياس ، فيجب أن يترك إلى ولاة الأمور ينظرون فيه باعتبار واحد هو : المصلحة العامة .

وختم ابن المقفع برنامجه الاصلاحى بتبيان ما للخليفة من أثر عظيم إذا صلح ، فالعامة لا تصلح إلا بصلاح الخاصة ، والخاصة لا تصلح إلا بصلاح امامها .. سلسلة يأخذ بعضها بحجز بعض .. لأن العامة تقلد خاصتها فاذا كان الخواص من ذوى الدين والعقل كان فى ذلك صلاح للعامة ..

ومن الشعر ما قتل!

فى الجانب الخفى من حياتى أمنية لم تتحقق ...

فقد كنت أتمنى أن يهبنى الله القدرة على نظم الشعر .. وكأى شاب فى مقتبل العمر حاولت أن أبنى بيتاً من الشعر ولكن البيت تهاوى بعد بنائه بلحظات .. وتناثرت أشلاؤه ألفاظاً ركيكة تنعى من بناها .. فهربت من دولة الشعر إلى دولة النثر راضياً من الغنيمة بمتعة التذوق لما تدبجه قرائح الشعراء من نظم جميل ، هو أقرب إلى السحر ، وأقدر على النفاذ والتغلغل فى ثنايا الوجدان وأشد تأثيراً فى النفس من الدر المنثور .

ولا عجب أن كان الشعر .. وليس النثر .. أداة التعبير عند فرسان العواطف ومشاهير العاشقين ، لأنهم يخاطبون الجانب الوجدانى فى نفس السامع ، ويضربون على الوتر الحساس فى قلب الانسان ، فحفظ لنا تاريخ البيان لذعات قلوبهم .. وتحرقات أشواقهم ، وبقيت قصائدهم محفورة فى سمع الزمن يتناقلها الناس جيلا بعد جيل ، يجترونها كلما شدهم الحنين إلى قطرات باردة تخفف من غلواء الحياة وقسوة العيش .

وإذا أنت حاولت أن تلتمس شيئاً من الغذاء لوجدانك، فسوف تتجه على الفور إلى قصائد عنترة وقيس بن الملوح وجميل بثينة وكثير عزة وأشباههم .. ولن تجد بغيتك فى آثار الناثرين ، وإذا وجدت عندهم فلن تحفظه ذاكرتك ، وإذا حفظت فلن تجد فيه المتعة التى يحدثها الشعر فى نفسك ، وربما لايتعدى أثر النثر وقع اللحظة التى قرأته فيها ..

أنظر إلى قول ابن عبد ربه فى (العقد الفريد) عن سحر البيان وأثره فى نفس الانسان :

« سحر البيان يمازج الروح لطافة ، ويجرى فى النفس رقة والكلام الرقيق مصايد القلوب ، وان منه لما يستعطف المستشيط غيظاً ، والمندمل حقداً ، حتى يطفئ جمرة غيظه ، ويسل دفائن حقده ، وان منه لما يستميل قلب اللئيم ، ويأخذ بسمع الكريم وبصره .. وكم من تخلص من أنشوطة الهلاك ، وتفلت من حبائل المنية ، بلطيف التوصل ، ولين الجواب ، حتى عادت سيئاته حسنات ، وعيض بالثواب بدلا من العقاب » .

وأنت تستطيع أن تلمس مصداق كلمات ابن عبد ربه فى آلاف القصص التى يحفل بها تاريخ الادب عن أثر الشعر فى استحياء أشخاص كانوا على شفا الهلاك .. ولكنك

تستطيع أن تقرأ عبارة ابن عبد ربه على وجه آخر إذا تذكرت المئات من الاشخاص الذين لقوا حتفهم بسبب أبيات من الشعر أذاعها عنهم خصومهم ، واتخذوا من هذه الأبيات أنشوطة تعلقت بها رقابهم .. عندئذ يمكنك أن تقرأ عبارة ابن عبد ربه على هذا النحو :

« وان منه لما يستريد المستشيط غيظاً ، حتى يشغل جمرة غيظه ، ويحرك دفائن حقده ، وان منه لما يستفز قلب اللئيم ، ويغشى بسمع الكريم وبصره .. وكم من عانق أنشوطة الهلاك ، واقترب من حبائل المنيه ، بسوء التدبير والدس .. حتى عادت حسناته سيئات .. وعيض بالعقاب بدلا من الثواب » .

الشعر القاتل

وإذا أردت نماذج لهذا الشعر القاتل فسوف تجده فى فترات القلق النفسى ، عندما تكون النفوس مهياة للبطش بالخصوم عند أقل بادرة وأدنى تهمة . عندها يمكن تفسير الكلمة على المعنى الذى يتقنه أرباب الدس والوقيعة للاطاحة بالخصوم . وستجد فى بدايات الانقلاب العباسى الكثير من هذه الفواجع .

وكان أبرز فرسان هذا النوع من الشعر القاتل (سديف) الشاعر الخاص لأول خلفاء بنى العباس عبد الله السفاح ، فلم يترك هذا الشاعر فرصة إلا انتهزها لتأليب السفاح ضد وجوه بنى أمية الذين أفلتوا من المذابح ، وأفلحوا فى الحصول على الامان والصفح من السادة الجدد . ولكن (سديفاً) كان لهم بالمرصاد ، يتعقبهم فى المحافل والمنتديات ليفسد عليهم أمانهم ، ولا يلبث ن يذكر السفاح بالجرائم التى ارتكبوها فى حق أجداده .. فتتحرك جذوة الانتقام فى نفسه .. فيأمر بقتلهم :

يقولون ان سديفا دخل على السفاح وعنده سليمان بن هشام بن عبد الملك (الاموى) وكان السفاح قد صفح عنه وأكرمه، فارتجل سديف هذه الابيات :

لا يغرنك ما ترى من رجال
إن تحت الضلوع داء دويا

جرد السيف وارفع العفو حتى
لاترى فوق ظهرها أمويا

وما أن سمع سليمان هذه الكلمات حتى أدرك أن منيته قد حانت فصاح فى وجه سديف : قتلتنى ياشيخ .. وما هى إلا ساعة حتى كان السفاح قد أمر به فقتل .

اثارة الاحقـــاد

ويقولون أن عمرو بن معاوية سليل البيت السفيانى حصل على عفوَ السفاح عنه وعمن معه . وما كاد الخبر يصل إلى سديف حتى سارع ليجدد الضغن فى نفس السفاح ، ويذكره بالفظائع التى ارتكبها الامويون بحق الهاشميين ، ويعدد جرائمهم مثل قتلهم الإمام زيد بن على ، وابنه يحيى ، وابراهيم الإمام أخا السفاح وواضع بذور الحركة العباسية ، وكان مروان بن محمد أخر الخلفاء الامويين قد اكتشف أمره وهو يحاول الفرار ، فقبض عليه وقتله بمدينة حران.

كل هذه الذكريات السوداء جمعها سديف فى قصيدة جاء فيها :

كيف بالعفو عنهمو وقديما
قتلوكم وهتكوا الحرمات
أين زيد وأين يحيى بن زيد
يا لها من مصيبة وترات
والامام الذى أصيب بحران
امام الهدى ورأس الثقات

ولم يفرغ سديف من قصيدته حتى استشاط السفاح غيظاً وجدد القتل والتنكيل فيمن عنده من بقايا الأمويين .

وكان عبد الله بن على (عم السفاح) بعد أن قضى على ملك الامويين بالشام ، قد عفا عن بعض وجوههم ، واستقبلهم وترضاهم وقدم لهم السماط ولكن فرحتهم لم لم تتم ، إذ ساق الشيطان إليهم الشاعر شبل بن عبد الله ، فحرك بذور الحقد فى نفس القائد العباسى . ونعى عليه صفحه عن ضيوفه .. فكانت هذه الأبيات ..

لا تقيلن عبد شمس عثاراً
وأقطعن كل رقلة وغراس

ذلها أظهر التودد منها
وبها منكمو كحز المواسى

ولقد غاظنى وغاظ سوائى
قربهم من نمارق وكراسى

أنزلوها حيث أنزلها الله
بدار الهوان والاتعاس

واذكروا مصرع الحسين وزيدا
وقتيلا بجانب المهراس

وتقول الروايات ان عبد الله بن على بعد أن فرغ من قتل ضيوفه أجمعين .. أمر بالبسط ففرشت على أجسادهم وهى لما تزل تنزف .. ثم استوى على البسط ليستأنف عشاءه وأنين القتلى والجرحى يتصاعد حتى سكنت أجسادهم إلى

الأبد ، وينسب الرواة إلى القائل العباسى قوله أنه لم يطعم فى حياته طعاماً ألذ وأطيب من طعامه فى تلك الليلة ..

ليت هنــــدا ..

ولا تعب إذا عرفت أن بيتين من شعر الغزل ينسبان إلى شاعر الغوانى عمر بن أبى ربيعة ، كانا سببا فى النكبة الشنعاء التى حاقت بالبرامكة وأودت بسلطانهم ، وتقول الروايات أن خصم البرامكة الحقود .. الفضل بن الربيع . استخدم كل وسائل الدس للوقيعة بين الرشيد والبرامكة ، فطعن فى دينهم وعقائدهم ونواياهم .. وعندما أعيته الحيل بدأ يضرب على الوتر الحساس فى نفس الرشيد ، وتر السلطة فأخذ يوحى للرشيد بأنهم يضمرون له الشر ويعملون للوثوب على الخلافة . وأوعز إلى أحد المطربين ليغنى للرشيد هذين البيتين اللذين قالهما ابن أبى ربيعة متغزلا فى احدى معجباته ، وما درى أنهما سيكونان أداة للتنكيل باكرم وأقوى من تولى الوزارة فى دولة العباسيين :

ليت هندا أنجزتنا ماتعد ... وشفت أنفسنا مما تجد

واستبدت مرة واحدة ... إنما العاجز من لايستبد

يا بيت عاتكه ..

والاعجب من ذلك أن يقول شاعر متهتك آخر معاصر لعمر بن أبى ربيعة بيتين من الشعر الغزلى ، ولكنهما يستخدمان فى الفتك بالأديب الكبير (عبد الله بن المقفع) ونعنى بالشاعر « الأحوص الانصارى » الذى قال فى «عاتكة» بنت عبد الله بن يزيد بن معاوية ، زوجة عبد الملك بن مروان الخليفة الأموى :

يا بيت عاتكة الذى أتعزل
حذر العدا ، وبه الفؤاد موكل
أنى لامنحك الصدود وأننى
قسماً إليك مع الصدود ، لاميل

ومن حقك أن تتساءل عن الوشيجة التى جمعت بين هذا الشعر الذى قيل فى مدينة الرسول فى أخريات القرن الهجرى الأول ، وبين ابن المقفع الذى القى حتفه غيلة على يد الخليفة المنصور بعد أربعين عاماً من ذيوع هذا الشعر . . ومن حقك أن تعرف أنه لم تكن هناك أدنى صلة أدبية بين الشاعر الخليع والاديب الفيلسوف فضلا عن الفاصل الزمنى

ولكن الحاقدين على ابن المقفع نسبوا إليه أنه مر يوماً على بيت من بيوت النار فانشد هذين البيتين ، مما عد دليلا على حنينه إلى المجوسية دين أبائه و دينه قبل أن يسلم ، فاعتبر طعناً فى صدق إسلامه ، ونقلت القصة إلى المنصور فكانت من أهم العوامل التى أثارت حفيظته ضد الأديب الشاب ، وأضافها إلى رصيد الضغائن التى كانت تتراكم فى نفسه تجاه ابن المقفع .. حتى فتك به وقتله شر قتلة . . وصدق عليه القول بأن من الشعر ما قتل .

صاحب التنــور

ما تخيلت نفسى يوماً فى موقع من مواقع السلطة .. ولا تمنيت يوماً أن أكون واحدا من رجالها ..

ولا أقول ذلك تقليلا من شأن السلطة ، ولا تهوينا من أمر رجالها .. فالسلطة ضرورة من ضرورات المجتمع الانسانى ، لتطبيق الشرائع ، وحفظ النظام والقانون ، وإدارة شئون الرعية ، و بدونها يتحول المجتمع إلى غابة تنتهك فيها الحرمات وتستباح الأعراض والأموال.

ولكن .. كل امرئ ميسر لما خلق له . . فلم تتيسر لى الصفات والشروط التى يجب توفرها فى من يريد أن يتولى أمر الناس من حزم وحسم . . وضبط وربط . . والتزام

بقواعد العدل والانصاف ولو تعارضت مع العواطف والأهواء . . كذلك فان للسلطة اغراؤها وبريقها الذى يخطف الأبصار ، ويجذب المتنفعين وطلاب الحاجات ، فيتزاحمون على بابك مادمت عليه قائماً . . فاذا تخليت أو أقصيت .. لاقدر الله ... انفضوا من حولك وتركوك وحيداً تنعى الجحود والنكران .

تلك صورة من صور الضعف الإنسانى ، تراها فى كل زمان ومكان ، وتجدها ملازمة لكل من ترقى صعداً فى معارج الجاه ثم هبط بعد حين ، وقد دفعنى ذلك إلى النفور من هذه الكوميديا السوداء .. فما أقسى أن ترى انساناً يهبط بعد عز ، ويخلد إلى زوايا النسيان بعد أن كان مقصداً وملاذا .

وهناك سبب آخر باعد بينى وبين الاقتراب من السلطة . ويرجع إلى اعتقاد دفين بأن رجال القلم والفكر لايصلحون للحكم ، بل لا يصلحون لممارسة .. أى شيء إلا فن الكتابة والتعبير . ولو استرجعت ذاكرتك اسماء بعض الادباء الذين مارسوا شيئاً من السلطة ، فسوف تكتشف أنهم أخفقوا فى ذلك إخفاقاً ذريعاً .. ولقد رسخ هذا التصور فى نفسى لأننى قرأت فى سن مبكرة قصة حياة الاديب الكبير محمد بن عبد الملك الزيات (صاحب التنور) الذى انتقل من دولة

الادب والشعر إلى دولة الحكم فى البلاط العباسى ، فتحولت رقته إلى عنف ، وصارت عذوبته بطشاً وعذاباً لكل من وقع فى قبضته ، حتى نضب ما فى فؤاده من قطرات الرحمة والعطف و الانسانية ، وبلغ من جبروته أنه استحدث آلة (التنور) لتعذيب ضحاياه ، فارتبط اسمه بهذه الآلة الجهنمية ، وشاء الله أن تنتهى حياته بين اسياخها وأسنانها الحادة فتمزق جسمه وتنهش لحمه ، ويتذوق قسوتها كما أذاقها لخصومه ..

وربما ربطت ظروف النشأة المتشابهة بينى وبين هذا الاديب الكبير فكلانا ينتمى إلى أسرة تحترف التجارة ، وكلانا جرفه حب الأدب فابتعد به عن حرفة الآباء، ولكن ما أسرع أن افترقنا .. فقد مضى ابن الزيات إلى البلاط ليعتلى سدة الوزارة ، منساقاً وراء طموحه فى المجد والسؤدد ، وبقيت على ولائى لعرش الكلمة راضياً بما قسمه الله لى من متاع الدنيا .

بداية العبقرية

كان محمد بن عبد الملك الزيات ابنا لتاجر كبير من تجار بغداد ، وكان أبوه .. كما يبدو من اسمه .. يتولى توريد الزيوت والمواد الغذائية إلى قصر الخلافة ابان عصر الرشيد

فجنى ثروة طائلة جعلته فى مصاف كبار تجار الكرخ ، وكان بالطبع يأمل فى أن تتواصل حرفة التجارة فى وريثه ، لولا أن الصبى أصابته لوثة الادب والفن التى اجتاحت بغداد فى عصرها الذهبى ، فتلاطمت فيها تيارات العلم والثقافة ، وازدهرت فيها الفنون والمعارف ، وتزاحم عليها العلماء والمفكرون والشعراء والكتاب من كل صوب . فى هذا المناخ المترع بأجواء العلم نشأ الصبى ، وعبثا حاول أبوه أن يغريه باحتراف التجارة والاقلاع عن هواية الادب ، ويروى لنا صاحب الأغانى حواراً دار بين الوالد العطوف والصبى الشارد يكشف لنا عن مفهوم كل منهما ..

قال الأب : والله ما أرى ما أنت ملازمه ينفعك ، وليضرنك ، لأنك تدع عاجل المنفعة (يقصد التجارة) وما أنت فيه مكفى ، ولك ولابيك فيه مال وجاه ، وتطلب الاجل الذى لاتدرى كيف تكون فيه ..

فقال الابن : والله لتعلمن أينا ينتفع بما هو فيه .. أنا أم أنت ..؟

ولقد صدقت نبوءة الاثنين .. وانتفع الابن بما مضى فيه ، فحقق لنفسه مكاناً مرموقاً وإسماً ذائعاً وثروة طائلة .. وصدق حدس الأب ، فلم ينتفع الابن بما جناه فدفع حياته

ثمناً للطريق الذى مضى فيه .. بل ثمناً لانحرافه عن طريق الرحمة والانصاف الذى ينبغى على أى أديب أن يسلكه ولا ينحاز عنه .

لقد مضى الشاب الطموح إلى قصر الخلافة باحثاً عن مكان متواضع بين جهابذة العلم والادب من أمثال الجاحظ والاصمعى والفراء ، يسمع منهم ويأخذ عنهم حتى لفت إليه الانظار بعبقريته المبكرة ، فأصبح حجة ومرجعاً فى علوم اللغة ، وفيما يرويه المؤرخون عنه ما يؤكد ذلك . فيقول البغدادى : « ان أبا عثمان المازنى لما قدم بغداد أيام المعتصم ، كان أصحابه وجلساؤه يخوضون بين يديه فى علم النحو ، فاذا اختلفوا فيما يقع فيه شك ، يقول لهم المازنى : ابعثوا إلى هذا الفتى الكاتب .. يقصد الزيات .. اسألوه واعرفوا جوابه ، فيفعلون ، فيصدر الجواب من قبله بالصواب الذى يرتضيه المازنى ، ويقفهم عليه » .

وما هى إلا سنوات قلائل حتى أصبح الشاب من أبرز كتاب الديوان ، وبدأت أشعاره تأخذ طريقها إلى الاسماع .. فقال فى المديح والهجاء والفخر والغزل .. وكان يتمتع بنزعة ساخرة وحب للدعابة مع الاصدقاء . أنظر إلى هذه الأبيات التى قالها ساخراً من صديقه عيسى بن زينب وكانت له أنف تشغل نصف وجهه :

يا أنف عيسى جزاك الله صالحة
وزادك الله اشراقاً ومتسعاً
حصن حصين وعز لو تناوله
كسرى الملوك أنوشروان لامتنعا
تركت عيسى فما عندى مخاطبة
له وخاطبت أنفاً طال وارتفعا
رأيت أنفاً ولم أعلم بصاحبه
فقلت : من صاحب الأنف الذى طلعا
قالوا فتى غاب فيه ، قلت واعجبى
ما أن رأى مثل ذا راء ولاسمعا

إلى منصب الـوزارة

ولعب الحظ لعبته الخالدة فى نقل ابن الزيات من مصاف الادباء والشعراء إلى منصب الوزارة للخليفة المعتصم الذى كان نصيبه ضئيلاً من العلم والمعرفة ، مما أتاح لاديب فحل مثل ابن الزيات أن يستحوذ على شئون الدولة فيصبح صاحب الكلمة النافذة فى مملكة بنى العباس ، أما المصادفة التى دفعت به إلى الوزارة فيرويها ابن خلكان كما يلى :

«كان أحمد بن عمار البصرى وزير المعتصم ، فورد على المعتصم كتاب من بعض العمال ، فقرأه الوزير عليه ، وكان

فى الكتاب ذكر (الكلأ) فقال له المعتصم : ما الكلأ؟ فقال الوزير : لا أعلم، وكان قليل المعرفة بالأدب ، فقال المعتصم خليفة أمى ، ووزير عامى ! ! وكان المعتصم ضعيف الكتابة ثم قال : أبصروا من بالباب من الكتاب ، فوجدوا محمد ابن الزيات المذكور ، فأدخلوه عليه ، فقال له : ما الكلأ ؟ فقال : الكلأ العشب على الاطلاق ، فان كان رطبا فهو الخلا ، فاذا يبس فهو الحشيش ، وشرع فى تقسيم أنواع النبات ، فعلم المعتصم فضله ، فاستوزره وحكمه وبسط يده »..

وأصبح ابن الزيات وزيرا..

وحدث التحول الكبير فى حياته بعد أن غادر دولة الأدب إلى دولة الحكم ، وأصبح سادناً للسلطة بعد أن كان خادماً للكلمة ، وما لبث أن قبض على زمام الحكم بيد من حديد، فاستبد بشئون الدولة ، وجعل شعاره فى تصريف الأمور تلك القولة الشائعة التى نسبت إليه فكانت وبالا عليه : « الرحمة خور فى الطبيعة وضعف فى المنة» ، وابتكر من ألوان العقاب والتعذيب ما يستفز المشاعر الانسانية ،وذلك لاكراه خصومه على الاعتراف ، والتنكيل بأعدائه فى أبشع صور التنكيل ، وقد أفاض المؤرخون فى وصف آله «التنور»

التى صنعها لتعذيب الأشخاص الذين جاروا على أموال الدولة ليرغمهم على ردها يقول ابن خلكان :

« وكان ابن الزيات قد اتخذ تنورا من حديد وأطراف مسامره المحدودة إلى الداخل ، وهى قائمة مثل رؤوس المسلات ، وكان يعذب فيه المصادرين وأرباب الدواوين المطلوبين بالاموال ، فكيفما انقلب واحد منهم أو تحرك من حرارة العقوبة تدخل المسامير فى جسمه ، فيجدون لذلك أشد الألم ولم يسبقه أحد إلى هذه المعاقبة ، وكان إذا قال أحدهم : أرحمنى أيها الوزير ، فيقول له : الرحمة خور فى الطبيعة » .

وان الانسان ليعجب كيف أباح هذا الشاعر الرقيق والاديب المثقف أن يستخدم عقله فى صنع آلة تعذيب وهو عمل السفاحين ومصاصى الدماء .

البحث عن تبرير

ومع بشاعة هذه الأعمال المنافية للاخلاق والعدل ، فان ابن الزيات لقى من الباحثين من يدافع عنه ، ويبرر تصرفاته من خلال الظروف التى أحاطت بالخلافة على عهد المعتصم وما كان يفتقر إليه من قوة الشخصية وصفات الحزم والعلم

والدهاء التى كان يتمتع بها أخوه وسلفه المأمون ، الأمر الذى أتاح لابن الزيات أن يوغل فى أسباب الطغيان دون أن يجد القوة التى تردعه ، ويضيف الباحث محمود المجرسى فى كتابه عن ابن الزيات تبريراً آخر ، وهو أنه كان مضطراً إلى انتهاج سياسة العنف للحفاظ على الأموال العامة ، وتدبير شئون الحكم فى مجتمع يضم أخلاطاً من شعوب الأرض وأنماطاً مختلفة من العقائد والمبادئ و يضطرم بكثير ومن الثورات والانتفاضات و المبادئ الهدامة ،وكلها ظروف لاتصلح معها الرأفة والملاينة أو التهاون فى محاسبة المصادرين ، ولو فعل ذلك لاتهم بالتفريط فى حق الدولة ؛ ولشاعت الفوضى فى الولايات والامصار ،واستبد كل حاكم بولايته يتصرف فيها على هواه ويبدد من خراجها مايشتهى..

وهكذا .. نجد دائماً فى مبدأ الحفاظ على قوة الدولة التبرير لاعمال البطش والقهر والتعذيب التى ارتكبت ضد الافراد .

ختـــام المـأساة

من كان يتصور أن يخبو هذا النجم الذى حلق فى سماء بغداد على مدار عهود ثلاثة من خلفائها (المعتصم والواثق والمتوكل)ومن كان يظن أن يلقى ، وهو فى خريف العمر مصيره البشع وبنفس الأداة التى ابتكرها واستخدمها فى

التعذيب .. وأن تتصاعد من صدره الممزق صيحات الاسترحام ، فلا يجد من يأبه له .. وإنما يسمع نفس العبارة التى كان يقولها لخصومه وهم يتمزقون ألما : (الرحمة خور فى الطبيعة) ..

تعالوا نقترب من هذا المشهد الأليم ، ونرى ستار الختام وهى تسدل على حياة رجل ضل الطريق إلى عالم الادب والشعر والكلمة الشريفة ، فانزلق إلى هاوية البطش والطغيان فلا بكت عليه الارض .. ولا عفت عنه السماء ..

يصف الطبرى نهاية محمد بن عبد الملك الزيات ضمن حوادث سنة ٢٣٣ هـ وهو العام الذى تولى فيه المتوكل الخلافة فأبقى ابن الزيات فى منصب الوزارة أربعين يوماً .. وبعدها وقعت الفاجعة :

« ثم أمهله أربعين يوماً فى الوزارة ، وبعد ذلك أمر ايتاخ (التركى) بأخذه وعذابه ، فبعث إليه ايتاخ ، فظن أنه دعى به ، فركب مبادراً يظن أن الخليفة دعا به ، فلما حاذى منزل ايتاخ قيل له : اعدل إلى منزل أبى منصور ، فعدل وأوجس فى نفسه خيفة ، ثم أدخل حجرة وأخذ منه سيفه ومنطقته وقلنسوته ودراعته ، وأرسل ايتاخ ينهب داره وأخذ ما فيها من متاع ودواب وجوار وغلمان ، ووجه المتوكل

إلى بغداد من قبض ما هنالك من أمواله وخدمه ، وأمر أبا الوزير بقبض ضياعه وضياع أهل بيته حيث كانت ، ولم يزل ابن الزيات فى حبسه مطلقاً ، ثم أمر بتقييده فقيد ، وامتنع من الطعام ، وكان لايذوق شيئاً ، وكان شديد الجزع فى حبسه كثير البكاء ، قليل الكلام ، كثير التفكير ، فمكث أياماً ثم سوهر ومنع من النوم ، يساهر وينخس بمسلة ، ثم أمر بتنور من خشب فيه مسامير حديد فأدخل فيه وعذب به أياماً ، ذكر الدندانى أن الموكل بعذابه قال :

« كنت أخرج وأقفل الباب عليه فيمد يديه إلى السماء جميعاً حتى يدق موضع كتفيه ، ثم يدخل التنور فيجلس ، والتنور فيه مسامير حديد ، وفى وسطه خشبة معترضة ، يجلس عليها المعذب إذا أراد أن يستريح ، فيجلس على الخشبة ساعة ، فاذا سمع صوت الباب يفتح قام قائماً كما كان ثم شدوا عليه ، فقال المعذب له : خاتلته يوماً وأريته أنى اقفلت الباب ، ولم أقفله ، ثم مكثت قليلا ، ثم دفعت الباب غفلة فاذا هو قاعد فى التنور على الخشبة ، فقلت : أراك تعمل هذا العمل ، فكنت إذا خرجت بعد ذلك شددت خناقه ، فكان لايقدر على القعود واستلت الخشبة حتى كانت تكون بين رجليه ، فما مكث بعد ذلك إلا أياماً حتى

مات ، واختلف فى الذى قتل به ، فقيل : بطح فضرب على بطنه خمسين مقرعة ، ثم قلب فضرب على ظهره مثلها ، فمات وهو يضرب ، وهم لايعلمون ، فأصبح ميتاً قد التوت عنقه ونتفت لحيته ، وقيل مات فى التنور بغير ضرب ، وكان يسمع قبل موته بيومين أو ثلاثة يقول لنفسه : يامحمد لم تقنعك النعمة والدواب الفره ، والدار النظيفة ، والكسوة الفاخرة ، وأنت فى عافية حتى طلبت الوزارة ، ذق ما عملت بنفسك ، فكان يكرر ذلك على نفسه ، فلما كان قبل موته بيوم ذهب عنه عتاب نفسه فكان لايزيد على التشهد وذكر الله ، فلما مات دفعت جثته إلى ابنيه سليمان وعبد الله وكانا محبوسين ، وقد طرحت الجثة على باب من خشب ، فى قميصه الذى حبس فيه وقد اتسخ ، فغسلاه على الباب ودفناه ، وحفرا له فلم يعمقا ، فذكر أن الكلاب نبشته وأكلت لحمه ».

انتهت رواية الطبرى . أما ابن خلكان فيقول : « ان المتوكل لما قبض على ابن الزيات أمر بادخاله التنور ، وقيده بخمسة عشر رطلا من الحديد ، فقال : يا أمير المؤمنين ارحمنى ، فقيل له : الرحمة خور فى الطبيعة كما كان يقول للناس ».

وبعد .. أرأيت أنني كنت على حق عندما قلت لك أنني لا أتمنى لنفسي أن تكون إلا حيث هي الآن .. وحتى نهاية العمر .

هيهــات أفتن بالسلطان ..

كل شيء كان ينذر بالخطر ..

وكل الدلائل كانت تشير إلى أن كارثة سوف تقع .. ولكن لاأحد يعرف اليوم ولا الساعة .. حتى الخليفة نفسه كان يشعر أن أحداثاً جساماً تدور من حوله .. وكان يرى السحب السوداء تنعقد فوق قصره .. وتوشك أن تعصف به وتقتلعه اقتلاعاً من عرش اجداده ..

في ذلك اليوم المشئوم ، اتخذ «المتوكل» مجلسه في قصر العروس ، وقد ارتدى الثياب الديبقيةالمطرزة بالذهب ، وجلس على سريره الابنوسي الموشى بخيوط الذهب ، وتناثر من حوله خلصاؤه .. وزيره الفتح بن خاقان .. وشاعره الفحل — البحتري — الذي أخذ يروى له شعراً مفاخر أجداده من بني العباس الذين اقاموا ملكاً عريضاً امتد من حدود الصين إلى ساحل الأطلسي ..

كان المتوكل يسمع إلى اشعار البحتري فتزداد نفسه حسرة وألما على مصيره ومصير من حوله . لقد انفلت

الزمام .. وفقد الخليفة سيطرته على الامبراطورية الشاسعة فانقسمت إلى دويلات متناحرة . . وأصبح الخليفة القابع فى بغداد لا يملك من السلطة أكثر من تصريف شئون قصره .. وانتقل الحكم إلى قادة الجند من الاتراك الذين كان سلفه المعتصم قد جلبهم من تخوم فرغانة واشروسنة وبخارى وسمرقند . ليوازن بهم غلبة الفرس على شئون الدولة .. ولكن سرعان ما تحول الدواء إلى بلاء .. واستلب الاتراك زمام السلطة ، وأصبحوا هم السادة الحقيقيين ، وتحول الخلفاء إلى مجرد أدوات تؤمر فتطيع .

كان البحترى يحكى للمتوكل عن عظمة الرشيد عندما كان يقف على شرفة قصره المطل على نهر دجله ، ثم يتطلع إلى السماء ليخاطب السحابة فيأمرها بالوقوف .. ثم لا يلبث أن يأمرها بالمسير **« فأينما سرت فسوف يأتينى خراجك »** ..

وكان المتوكل يستمع إلى أمجاد أجداده العظام من أمثال المنصور والمهدى والمأمون ، فتمتلئ نفسه وجدا وحقداً على المعتصم الذى كان سبب البلاء بما ادخله فى جسم الدولة من عناصر شرسة لا تعرف من شئون الحياة إلا السلب والنهب والايذاء ، حتى ضجت بغداد من فسادهم وايذائهم ، وطغيانهم ، فما كان من المعتصم إلا أن اقام لهم مدينة

سامراء لتكون مأوى يمنع عن الناس بلاءهم . ولكن البلاء كان قد استشرى كالسرطان فى جسد الدولة ، وأصبح الحكم فى أيدى قادتهم من امثال الأفشين واشناس وايتاخ ووصيف وبغا .. وامتدت ايديهم بالايذاء إلى سادتهم من الخلفاء العباسيين . وتحولوا إلى اداة لارهاب الخلفاء وتدبير المؤامرات ضدهم .

فجأة .. وقعت المأساة ..

تلفت الخليفة المتوكل إلى حارسه التركى (باغر) فوجده يتقدم نحوه ومن حوله عشرة من الغلمان الاتراك وهم ملثمون والسيوف فى ايديهم ... دهش المتوكل لهذا التصرف الذى يتنافى مع أصول اللياقة والادب ... اعتدل فى سريره ليستكشف الامر ... فوجئ بحارسة باغر يصعد إلى السرير ويخرج سيفه من غمده ... ثم يغرسه فى بطن الخليفة حتى برز من خاصرته ... ثم اخرج السيف ودسه مرة ثانية فى جنبه الايسر .. وما هى إلا لحظات حتى اسلم الروح ..

ذعر وزير الخليفة — الفتح بن خاقان — وحاول أن يدافع عن سيده الردى .. فكان نصيبه ضربة مماثلة قضت عليه ، ثم تحول سرير الخليفة إلى بركة دماء .. فتقدم الغلمان الملثمون ولفوا جسد الخليفة فى بساط .. وفعلوا مثل ذلك فى جثمان وزيره ..

أما الشاعر البحترى فقد افلت كالفار المذعور من هذه المذبحة ، وخرج ليروى هذه الفاجعة فى قصيدته الرائية الشهيرة التى يقول فيها :

صريع تقاضاه السيوف حشاشة
يجود بها والموت خمر أظافره
أدافع عنه باليدين ولم يكن
ليثنى الاعادى اعزل الليل حاسره
ولو كان سيفى ساعة الفتك فى يدى
درى القاتل العجلان كيف اساوره
حرام على الراح بعدك أو أرى
دما بدم يجرى على الأرض مائرة

بعد هذه المذبحة حاول خلفاء بنى العباسى ان يستدركوا أمرهم ، ويستجمعوا السلطة التى خرجت من أيديهم .. ولكن هيهات .. فقد عاث الترك فى الأرض فساداً .. وازادوا بطشاً وقهراً لكل من يحاول ان يعترض سبيلهم . وحاول بعض الخلفاء أن يستعين بالعناصر الفارسية لمواجهة طغيان الترك .. فكان كالمستجير من الرمضاء بالنار .. وجاء امراء

بنى بويه ليفعلوا بالخلفاء العباسيين مثلما فعل قادة الترك ..
وعندما تقدم معز الدولة بنى بويه من الاهواز إلى بغداد ،
دخلها دخول الفاتحين ، ومنحه الخليفة المستكفى أمرة الامراء
«واعطاه الطوق والسوار والة السلطنة» وعقد له لواء ،
وخلع عليه لقب — معز الدولة — ولقب اخاه ركن الدولة ،
ولقب اخاه الآخر عماد الدولة . وأمر ان تضرب ألقابهم
على الدينار والدرهم » كما يقول الفخرى .

ولكن كل هذه التنازلات لم تشفع للخليفة — المستكفى —
عند الامير الزاحف .. فما ان استتب له الامر فى بغداد حتى
أمر بالحجر على الخليفة وقدر له معاشاً يومياً يتقاضاه بأمر
الامير .. ثم سحل عينيه .

ومضت المأساة إلى نهايتها .. حتى إذ كان عهد الخليفة —
الطائع — وقد جلس فى سرير الملك ومن حوله ندماؤه
وخلصاؤه ، ومن بينهم الشاعر الشريف المرضى ؛ دخل عليه
الأمير بهاء الدولة البويهى يسأله الاذن ليجدد العهد .. ،
فأذن له .. فدخل بهاء الدولة ومن ورائه جمع غفير من
جنود الديلم ، وتقدم أحدهم من الخليفة كأنه يريد تقبيل يده
وما هى إلا لحظات حتى جذب الخليفة من ثيابه وهو
يستغيث ولكن أحداً لا يتلفت إليه .. ونهبوا ما فى قصره ..

ثم أمره أن يخلع نفسه ففعل .. وتنازل للبويهين عن كل شيء.
وخاف الشريف الرضى ان يعيد الفرس تمثيل دور الترك
مع المتوكل ، فأسرع الانذا بالفرار ليروى للناس احداث
هذه التراجيديا السوداء فى قصيدته التى مطلعها :

لواعج الشوق تخطيهم وتصمينى
واللوم فى الحب ينهاهم ويغرينى
أعجب لمسكة نفسى بعدما رميت
من النوائب بالابكار والعون
ومن نجائى يوم الدار حين هوى
غيرى ولم أخل من حزم ينجينى
مرقت منها مروق النجم منكدراً
وقد تلاقت مصاريع الردى دونى
وكنت أول طلاع ثنيتها
ومن ورائى شر غير مأمون
أمسيت ارحم من أصبحت أغبطه
لقد تقارب بين العز والهون
ومنظر كان بالسراء يضحكنى
يا قرب ما عادد بالضراء يبكنى
هيهات اغتر بالسلطان ثانية
قد ضل ولاج ابواب السلاطين

وكان لابد أن يسدل الستار على هذه المهازل المبكية .. وجاءت النهاية كالاعصار المدمر من قلب آسيا فى صورة السفاح المغولى هولاكو الذى زحف على بغداد ، واستباح دماء أهلها أربعين ليلة . وحول قصورها وحدائقها إلى أطلال .. وطوى بذلك صفحة شغلت من تاريخ العالم الإسلامى ما يزيد على خمسة قرون ،وبقيت لنا العبرة والعظة من هذا التراث الذى يختلط فيه المجد بالضعف والحرص بالتسيب ، واليقظة بالغفلة ، وكلها عناصر تفاعلت فصنعت لنا هذا التاريخ .

مذبحة الجمالية

إذا دخلت القاهرة المعزية من باب الفتوح ومسجد الحاكم بأمر الله إلى يسارك . وسرت فى شارع المعز لدين الله بضع خطوات ستجد إلى يمينك بعض الحوارى الضيقة كانت تضم فيما مضى دار الضيافة الفاطمية ، وفى عشية الأربعاء الموافق ٢٩ من جمادى الأولى عام ٤٦٥ هجرية استقبلت الدار ضيفاً كبيراً هو « بدر الجمالى » أمير عكا فى زمن الخليفة المستنصر . وبعد أيام من نزوله دار الضيافة أقام الجمالى حفلا فخيماً دعا إليه قادة الجيش الفاطمى ثم ذبحهم أجمعين ، وما أن طلع الصباح حتى كانت رؤوسهم

كلهم بين يديه ، وكانت هذه المذبحة نموذجاً اقتدى به محمد على لما أباد المماليك فى القلعة ، وإذا كان الناس يذكرون مذبحة القلعة لقرب العهد بها ، فانهم نادوا ما يذكرون مذبحة الجمالى رغم أن اسمه لايزال مرسوماً على أعرق أحياء القاهرة القديمة الجمالية أما آثاره العمرانية فلاتزال قائمة تشهد على قدرته فى تحصين القاهرة باقامة الأبواب الحجرية الضخمة : الفتوح والنصر وزويلة ، ولا يزال مسجده الرشيق الجيوشى يطل على القاهرة من شرفة تلال المقطم ..

فما هى قصة هذا الأمير الغامض القادم من عكا؟ .

ولماذا دبر تلك المذبحة البشعة ولحساب من ؟

وما دوافعها ؟ وما هى نتائجها على مجرى الأحداث فى مصر الفاطمية ؟ .

لما فتح جوهر الصقلى مصر . باسم سيده ومولاه المعز لدين الله الفاطمى . شرع ليلة وصوله بناء مدينة جديدة لتكون حاضرة العهد الجديد . فبنى قصور الخليفة وأسرته وحاشيته وحكومته ، ومن حولها أقام الثكنات لفيالق الجند الذى شارك فى الفتح ، ثم أحاط المدينة بسور من الطوب اللبن ليحميها من الغزاة .

تلك كانت مدينة القاهرة عند نشأتها .. معقلا يتحصن فيه الجيش الفاتح — تماماً كما فعل عمرو بن العاص حين بنى الفسطاط كما فعل العباسيون لما أعادوا فتح مصر — بعد الانقلاب العباسى — فبنوا لجندهم مدينة جديدة أسموها العسكر وموقعها حى زينهم حالياً — لتكون بمنأى عن الفسطاط حاضرة العهد البائد . وكذلك فعل أحمد بن طولون حين استقل بمصر فبنى مدينة القطائع ومحلها حى الخليفة وبركة الفيل . لتكون ثكنة عسكرية تضم ١٠٠ ألف جندى يدينون له بالولاء ، فكانت القاهرة هى الحلقة الرابعة فى سلسلة المدن العسكرية التى أقامها حكم مصر منذ الفتح الإسلامى وحتى منتصف القرن الرابع الهجرى ، وكانت المسافة بين القاهرة والمدن السابقة أرضاً خلاء يغمرها النيل وقت الفيضان .

وحرص جوهر على أن يكون لكل فرقة عسكرية أو قبيلة شاركت فى الغزو خط أو حى خاص بها ، حفاظاً على تقاليدها وعصبيتها ولاتزال بعض شوارع القاهرة المعزية تحمل أسماء هذه الفرق أو قادتها مثل زويلة وكتامة وزنانه والبرقية والجودرية والميمونية وبرجوان وسعاره .. الخ .

وكان البربر — بزعامة قبيلة كتامة — يشكلون غالبية الجيش الفاطمى ، ولكن مالبث أن ضم الجيش ارتالا من

المماليك الترك والأكراد والصقالبة والأرمن والديلم ، وكلهم من الجند المرتزقة الذين يحترفون القتال بحثاً عن الأجر الوفير والامتيازات الرفيعة وفرص الارتقاء إلى مصاف القيادة . أو الصراع على النفوذ والسلطة .

عاقبة الاعتماد على الجنود المرتزقة

وفى الصدر الأول للدولة الفواطم ، كان طموح زعماء الجند محكوماً بهيبة الخلفاء الأوائل : المعز والعزيز والحاكم .. فكانوا يحافظون على التوازن بين الفرق المتنافرة عرقياً .. فلما ذهبوا جاء من بعدهم خلف ضعاف ، فانفسح المجال أمام زعماء الفرق لفرض سطوتهم وإملاء مطالبهم وتعزيز نفوذهم ، حتى تحولت البلاد إلى مسرح للفتن والدسائس ، وأضحى الخلفاء أشبه بالدمى فى أيدى زعماء الجند . يكسبون رضاهم بالرشوة حينا .. ويتخلصون منهم بالقتل حينا أخر .. وانصرفت الدولة عن تدبير الشئون الداخلية والخارجية حتى عصفت بها الرياح والاعاصير فى نهاية المطاف .. رياح الحروب الصليبية التى كانت سبباً قوياً فى زوال الدولة الفاطمية ، أما الإعصار فكان يمثله النجم الصاعد فى سماء العالم الإسلامى : صلاح الدين يوسف بن نجم الدين أيوب .. الوريث الوحيد للدولة حكمت مصر قرنين من الزمان .

تلك ظاهرة تاريخية متكررة تجدها فى مصائر الدول التى اعتمدت فى قوتها العسكرية على العناصر المرتزقة ، وأهملت العناصر الوطنية المحلية ، وكان هذا شأن الدولة الفاطمية ، فقد كان كل جندها — منذ نشأتها — من الجند المرتزقة التى أشرنا إليها ، فلما كان عهد المستنصر — خامس خلفائها — دخل إلى حلبة الصراع على النفوذ عنصر جديد ليزيد نار الفتنة اشتعالا ، وهم الجنود السود . وساعد على ذلك أن أم المستنصر كانت سوداء ، فحرصت على أن يكون بنى جنسها عنصراً غالباً فى الجيش الفاطمى حتى بلغ عددهم — على ما يذكر المقريزى — خمسين ألف جندى .

وكان الصراع قبل ذلك ، محصوراً بين الفرق العسكرية التركية والفرق المغربية التى جاءت مع جيش الفتح من المغرب. فلما انتصر الترك خرج المغاربة من القاهرة ولاذوا بالدلتا يعيثون فيها فساداً . وخلا الجو للاتراك . ولكن استجد الصراع بينهم وبين السود الذين تؤيدهم أم الخليفة وتعدهم بالسلاح والمال حتى وقعت البلاد فى فوضى مدمرة وأصبح السلطان كله فى أيدى زعماء الفرق العسكرية الذين اشعلوا فى البلاد نار حرب أهلية دفعت مصر وشعبها ثمنها غالياً ..

وأين الجنــود المصريون
فى الجيش الفاطمى

ولك أن تسأل : وأين الجندى المصرى فى هذه التوليفة الغريبة ولماذا لم يفكر الحكام فى تجنيد المصريين ليتحملوا عبء الدفاع عن بلادهم ... ؟

ويأتيك الجواب صريحاً — بلالف أو دوران — أن تجنيد المصريين مرفوض مرفوض مرفوض .. وخذها حقيقة تاريخية مهما كانت مؤلمة ، وهى أن كل الحكام الأغراب الذين توافدوا على حكم مصر ، كانوا حريصين أشد الحرص على إبعاد المصريين عن الجيش . ومهما تنافرت مذاهب هؤلاء الحكام أو اختلفت أصولهم . فقد كانوا متفقين على نزع سلاح الشعب المصرى .. وكل منهم يوصى من يأتى بعده بهذه الوصية وهى إبعاد المصريين عن التجنيد ...

ولعلك أدركت السر وراء هذه الوصية . . فقد كان هؤلاء الحكام يعرفون أنهم مغتصبون ، وأن المصريين لو دخلوا الجيش فسوف ينقضون على رؤوس غاصبيهم .. والباقى معروف ...

وللأمانة .. حاكم واحد يجب استثناؤه من هذه القاعدة هو محمد على مؤسس مصر الحديثة الذى أدرك بذكائه الفطرى

مزايا الفلاح المصرى وصبره وجلده . فاتخذ منه أساس قوته العسكرية الناهضة ، وتحققت فراسة محمد على ، فما هى إلا عشية وضحاها حتى كان الجندى المصرى يلعب أمجد أدواره فى معارك الشرق الأوسط طوال النصف الأول من القرن التاسع عشر .

على أية حال ، تلك صفحة مجيدة نسجلها للذكرى .. وللعرفان ، ولكنها قصة أخرى . . ونعود سريعاً إلى عصر المستنصر الفاطمى .

مصر تتحول الى
مسرح للفوضى والدمار

أدت الحرب الأهلية بين الفرق العسكرية إلى دمار الاقتصاد الوطنى ، فقد عجز الناس عن مزاولة نشاطهم ، وبارت الأرض وتعطلت الزراعة ولم تجد المحاصيل من يحصدها .. كان النيل يفيض ثم ينحسر فلا تخرج الفلاحون إلى الحقول .. وقد سيطر عليها قطاع الطرق المتناحرون .. فماذا تنتظر من وراء ذلك غير المجاعة والفقر والدمار . وكانت تلك بداية محنة من أشد المحن التى عصفت بالشعب المصرى وهى المحنة التى تذكرها كتب التاريخ باسم (**الشدة المستنصرية**) التى دامت سبع سنين كانت عجافاً مثل السنين

التى تنبأ بها يوسف عليه السلام حتى بلغ سعر الرغيف خمسة عشر ديناراً واضطر الناس إلى أكل القطوالكلاب ، فلما انقرضت القطط والكلاب لجأوا إلى أكل بعضهم البعض ...

والمؤرخون الذين كتبوا عن هذهالمجاعة أفاضوا فى وصف تفاصيلها وبعضهم تحرج من التفاصيل استبشاعاً لما شهدته البلاد من الهول والفزع .. وسوف نكتفى بهذه الصورة البشعة لعلها تغنيك عن الاطناب..

فالمؤرخ المقريزى ينقل إلينا فى خططه ، شهادة مؤرخ مصرى معاصر لهذه المجاعة هو الشريف محمد بن أسعد الجوانى النسابة فيقول : حل بمصر غلاء شديد فى خلافة المستنصر بالله فى سنة ٤٥٧ وأقام إلى ٤٦٤ ، وعم مع الغلاء وباء شديد فأقام ذلك سبع سنين والنيل يمد وينزل فلا يجد من يزرع ، وشمل الخوف من العسكرية وفساد العبيد ، فانقطعت الطرقات براً وبحراً إلا بالخفارة الكثيرة مع ركوب الغرر ، ونزا المارقون بعضهم على بعض واستولى الجوع لعدم القوت ، وصار الحال إلى أن بيع الرغيف من الخبز الذى وزنه رطل بأربعة عشر درهم ، وبيع أردب القمح بثمانين ديناراً ، ثم عدم ذلك فأكلت الكلاب والقطط .

ثم تزايد الحال حتى أكل الناس بعضهم بعضاً ، وكان بمصر (الفسطاط (طوائف من أهل الفساد قد سكنوا بيوتاً قصيرة السقوف . قريبة ممن يسعى فى الطرقات ويطوف ، وقد أعدوا حبالا وخطاطيف ، فاذا مر بهم أحد شالوه فى وقت ثم ضربوه بالإخشاب وشرحوا لحمه وأكلوه ...

ويروى المؤرخ المذكور قصة نقلا عن بعض النساء الصالحات أن قالت : كانت لنا من الحارات امرأة ترينا أفخاذها وفيها كالحفر ، فكنا نسألها فتقول أنا ممن خطفنى أكلة الناس فى الشدة ، فأخذنى إنسان وكنت سمينة ، فأدخلنى إلى بيت فيه سكاكين وأثار الدماء وزفرة القتلى ، فأضجعنى على وجهى وربط فى يدى ورجلى حبلا إلى أوتاد حديدية ، ثم شرح من أفخاذى شرائح وأنا أستغيث ولا أحد يجيبنى ، ثم أضرم الفحم وشوى من لحمى وأكل أكلا كثيراً ثم سكر حتى وقع على جنبه لا يعرف أين هو ، فأخذت فى الحركة إلى أن أنحل أحد الأوتاد ، وأعاننى الله على الخلاص وتخلصت وحللت الرباط وأخذت خرقاً من داره ولففت بها أفخاذى وزحفت إلى باب الدار ، وخرجت أزحف إلى أن وقعت فى المأمن ، وجئت إلى بيتى وعرفتهم بموضعه فمضوا إلى الوالى فكبس عليه وضرب عنقه ، وأقام الداء فى أفخاذى سنة إلى أن ختم الجرح .

الخليفة لا يجد قوت يومه

فى تلك الظروف الحالكة انعدمت هيبة الدولة ، وانقلب زعماء الجند إلى الخليفة ينهبون قصوره ويبيعون محتوياتها ، حتى بات المستنصر لايجد قوت يومه ، فكانت إحدى بنات أحد العلماء تتصدق عليه كل يوم برغيفين حتى لايموت جوعاً .. وعندما ذهب إليه بعض الجند يسألونه أجورهم وجدوه جالساً على حصير هو آخر مايملكه من مقتنيات القصور التى كانت تحفة للناظرين بما تضمه من ذهب وجوهر وأرسل المستنصر إلى امبراطور الدولة البيزنطية قسطنطين التاسع يطلب منه أن يمده بشحنة من الغلال والأقوات . ووافق الامبراطور على نجدة الخليفة الفاطمى ولكن القدر لم يمهله لتنفيذ وعده .

وجاءت من بعده امرأة مستبدة هى الامبراطورة تيودورا فوضعت شروطاً سياسية لتنفيذ الاتفاق ووجد فى الشروط إهانة له .. فرفضها .. وفضل أن يتحمل الجوع على أن يقبل شروطاً تعسفية ، ووجد المستنصر أن البلاد على حافة الهاوية — ان لم تكن قد بلغتها فعلا — فالحرب الأهلية مزقتها شر ممزق ، وزعماء الفرق العسكرية تحولوا إلى قطاع طرق ينقضون على القرى لنهبها ويسيطرون على

الدلتا والصعيد .. فلاحت له فكرة جريئة سرعان ما نفذها ، وهى استدعاء بدر الجمالى حاكم عكاً لتسليمه الأمور .

مذبحة فى وليمة للقضاء على الأمراء

كان أبو النجم بدر الجمالى مملوكاً أرمنياً لأمير دمشقى اسمه جمال الدين بن عمار ، فانتسب إليه وفقاً للنظام المملوكى واشتهر بدر بالعزم والجد والهمة فى كل ما يوكل إليه من أمور ، وأخذ يترقى فى سلم الوظيفة حتى تولى إمارة دمشق من قبل المستنصر ، ثم تقلد نيابة عكا ، وما أن تلقى دعوة الخليفة بالقدوم إلى مصر حتى رحب بها وكان شرطه الوحيد أن يحضر ومعه جنوده سراً ، ولا يذاع خبر وصوله القاهرة إلا بعد أن يتم له الأمر ، وينفذ الخطة التى دبرها ، ووافق المستنصر .

أبحر الجمالى من عكا إلى دمياط ، واتخذ سبيله فى النيل حتى نزل قليوب . ومن هناك بعث إلى الخليفة ينبئه بوصوله ويستأذنه فى دخول القاهرة منفرداً . ونزل بدر فى دار الضيافة دون أن يفطن قادة الجيش الترك إلى حقيقة أمره ، وبدأ هو يتقرب منهم ويتردد على قصورهم ويغمرهم بالهدايا المبهرة ، وكانت مظاهر الفخفخة التى

أحاط نفسه بها من أهم العوامل التى أغرتهم بصداقته والتمتع بخيراته فى الوقت الذى كانت فيه القاهرة تعيش المجاعة وأصبح فيها القوت أغلى من الياقوت ، حتى إذا اطمأن الحمالى إلى أن قادة الجيش قد وثقوا به بدأ فى تنفيذ ضربته الأخيرة .. القاتلة .. فدعاهم إلى وليمة فاخرة تتناسب مع مكانتهم العظيمة .

قبيل الحفل ، استدعى بدر الحمالى قادة جيشه سراً من قليوب ، وأسكنهم غرف القصر الداخلية وكانت خطته كالآتى : كل قائد من قواده يتكفل بقتل واحد من امراء الجيش الفاطمى ، وحلال عليه داره وقطاعه وبيته وحريمه وكل ما يملك..

وبدأت الوليمة عند الظهر وامتدت حتى ساعة متأخرة من الليل ، وعكف الأمراء الاتراك على الطعام والشراب.. يأكلون ويسكرون ويبدو أن الحمالى طلب من طباخ القصر أن يضع فى الطعام شيئاً يستدعى الذهاب إلى دورة المياه .. فكلما ذهب أمير منهم إلى الحمام وجد فى انتظاره ضابطاً أرمنيا ممتشقاً السيف .. فيقطع رأسه ، ولم يفطن بقية الأمراء إلى أن بعضهم يذهب ولايعود لأن الخمر لعبت برؤوسهم وأفقدتهم القدرة على التمييز . يقول المقريزى . فما طلع

ضوء النهار حتى استولى أصحاب بدر على جميع دور الأمراء ، وصارت رؤوسهم بين يديه . فقويت شوكته وعظم أمره ، وخلع عليه المستنصر بالطليلسان لمقور وقلده وزارة السيف والقلم ، فصارت القضاة والدعاة وسائر المستخدمين من تحت يده .. ثم أنعم عليه بلقب الملك فكان أول من حمل هذا اللقب فى تاريخ مصر.

تصــفية جيــوب التحرر فى الدلتــا والصــعيد

وما أن تخلص بدر من زعماء الفتنة فى القاهرة ، حتى مضى إلى الوجه البحرى حيث يتمركز الجند المغاربة فأفناهم عن آخرهم ، ثم عبر النيل إلى البحيرة ثم الاسكندرية حيث تحصين الترك فقطع دابرهم ، ثم اتجه إلى الصعيد حيث يسيطر الجنود السود فاستأصل شأفتهم ، وبدا أن مصر قد استراحت من محنة الحرب الأهلية فاتجه الجمالى إلى النهوض باقتصاديات البلاد حتى تعود عجلة الانتاج ، ويخرج المصريون إلى مواقع العمل ليستأنفوا نشاطهم ، وسلك فى ذلك مسالك تدل على ذكائه وفهمه لطبيعة الأمور ، فأعلن إعفاء المزارعين من ضريبة الأرض لمدة ثلاث سنوات ، وفى العام الرابع يدفع الفلاح نصف الضريبة فقط وشجع

أصحاب رؤوس الأموال على القدوم إلى مصر واستثمار أموالهم بعد أن نزحوا عنها أثناء المحنة ، وبدأت القوافل ترد على مصر من كل مكان . واتجه إلى إصلاح قنوات الرى والصرف وإعادة شقها بعد أن ردمت ، وعمل على تشجيع العمران وتعمير الأرض للناس فقال إن كل من يبنى أرضاً خربة فهى ملك له ، وأباح للناس بناء كل أرض فضاء ومن تأخر عن ذلك فلا حق له فيها .. ودبت الحياة فى المجتمع من جديد ، وشعر الناس بالأمن والأمان .. فأقبلوا على العمل والانتاج والعمران بحماس شديد .. وعادت الخضرة من جديد إلى الأرض البوار .. وارتفعت المبانى فوق الأرض الخراب حتى ليقول المقريزى : وصار البلدان — القاهرة والفسطاط — لا يتخللها داثر ولا دارس.

وأعاد الجمالى تقسيم البلاد إداريا ليضمن حسن الرقابة على جمع الأموال .. وعادت الأموال إلى خزينة الدولة بعد أن كانت مفلسة ، وازدهرت الميزانية العامة ، حتى أصبحت فى عهده ثلاثة ملايين دينار و ١٠٠ ألف .. وانخفضت الأسعار حتى بيع تليس القمح بربع دينار بعد أن بلغ ثمانية دنانير وقت الشدة ، ودبت الحياة فيما بين القاهرة والفسطاط .. فيقول المقريزى : وصار المتعيشون

بالقاهرة والمستخدمون يصلون العشاء بالقاهرة ويتوجهون إلى مساكنهم فى مصر لايزالون فى ضوء وسرج وسوق موقود إلى باب الصفا (قرب عين الصيرة) وتنتشر البساتين .وقبالة جميع ذلك حوانيت مسكونة عامرة بالمتعيشين والمعاش مستمر بالليل والنهار ..

وبعد أن استقرت الأحوال الاقتصادية ، وعم الرخاء من جديد اتجه بدر الجمالى — ومعه شعب مصر ، إلى تنظيم شئون البلاد العسكرية وحمايتها من الأخطار الخارجية وكان سور القاهرة الذى بناه جوهر من الطوب اللبن قد تهدم وانتشرت المبانى خارجه . فقام الجمالى ببناء سور جديد يضم العمران الجديد ، وأقام على السور ثلاثة أبواب ضخمة من الحجر ، ولاتزال هذه الابواب قائمة حتى الآن وهى أبواب الفتوح وزويلة والنصر ، وفى عهده تعرضت البلاد لغزوة سورية قام بها صاحب دمشق ، عندئذ نهض المصريون يساندون جيش الجمالى لمواجهة الخطر الجديد ، فوزع عليهم السلاح ثم خرج لملاقاة الجيش السورى فى ثلاثين ألف مقاتل .

يقول الدكتور محمد حمدى المناوى حول هذه الواقعة فى كتابه (الوزارة والوزراء فى العصر الفاطمى) ما يلى :

« ويظهر ان الجند المصريين لم يكن ينظر إليهم على أنهم جند مهرة اذ أن صاحب دمشق عندما جمع أصحابه للمشورة أشار عليه بعضهم بالعودة إلى الشام ، ولكن بعضهم هونوا عليه الأمر ، وألا يأبه لكثرتهم .. فانما هم سوقة وصيحة واحدة تهزمهم .. ولكن المصريين خيبوا ظنهم واستطاعوا القضاء على الجيش السورى وقادته وفر صاحبه وحيداً إلى دمشق ومنذ ذلك الوقت ظل يتردد اسم العساكر المصرية والامراء المصريين كجزء من الجيش .

* * ماذا نستنتج من هذه القصة ؟

هل كان اشتراك المصريين فى تلك المعركة بناء على تدبير وتخطيط لضم المصريين إلى صفوف الجيش النظامى ..؟ أم أنه كان استجابة ذاتية تلقائية لداعى الجهاد حين تتعرض البلاد لخطر خارجى فيهب المصريون إلى الدفاع عن وطنهم دون انتظار لتنظيم أو دعوة ؟ .

على أى حال ، فان أهم ما فى القصة أن المصريين — برغم الجراح العميقة التى كانت تنزف فى نفوسهم — لم يتقاعسوا أو يقعدوا مقاعد الفرجة ويقولوا : لسنا مسئولين عن شئون الدفاع ... وإنما خرجوا يحملون السلاح ويدرءون الخطر عن وطنهم ، ليخيبوا ظن الذين استهزأوا بهم وظنوا أنهم سوقه يفرون من أول صيحة ..

ودارت عجـــــلة الحيــاة من جـديد

ولم يتوقف عطاء المواطن المصرى عند حد .. وانما امتد إلى كل مجال فى الزراعة والصناعة والفنون والآداب والعمران ودارت عجلة الحياة من جديد لتصب خيراتها من جيوب أولئك الذين ملكوا مقدراته ، فنزفوا ثرواته بحماس وشغف. ولك أن تفزع إذا علمت أن بدر الجمالى هذا — وقد حكم مصر هو وابنه خمسين سنة . . نجح فى أكتناز ثروة طائلة ، برغم أن البلاد لم تكن قد برئت تماماً من محنتها . وتستطيع أن تخمن قدر هذه الثروة إذا علمت أنه منح شاعراً حمل سبعين جمل لأنه مدحه بقصيدة أعجبته . وإذا علمت أن أحد كتابه اشترى سمكة من عنبر بألف دينار حرقها فى النار فى جلسة واحدة ، وإذا علمت أن ابنه **الافضل** — وكان من هواة التماثيل — أقام لنفسه تمثالا بالحجم الطبيعى من العنبر ليعلق عليه ملابسه ...

يقول المؤرخون أن بدر الجمالى كان شغوفاً باقتناء الجواهر الثمينة ، وخلف من المال بعد عمارة سور القاهرة ستة ملايين دينار ذهب و ٤٠٠ مليون درهم ، ومن الجواهر والياقوت أربعة صناديق ، ومن القصب والفضة والذهب

والمراكب — يعنى السروج المحلاة — ما يعجز عن وصفه ، وخلف ألف قصبة زمرد لأنه كان له به غرام عظيم ، جمعت من جميع الأقطار . أما ابنه الأفضل شاهنشاه فقد أطنبت كتب التاريخ فى ذكر الثروة التى خلفها ، لدرجة أن الخليفة ظل أربعين يوماً فى قصور الأفضل وبين يديه الكتاب يسجلون محتوياتها ، فى الوقت الذى كانت البلاد فيه تعانى ويلات الحروب الصليبية ، وتئن من شدة الجراح التى خلفتها محنة الحروب الأهلية .. ومن المؤكد أن شعب مصر وهو يرى بدر الجمالى يستنزف ثروته وعرقه وكفاحه — صاح صيحته الخالدة : وكأننا يا بدر لا وحنا ولا جينا ..

رعشـــة الاحتضـــار

تستوقفنى دائماً لحظات نشوء الدول، وتستهوينى متابعة تطورها فى مراحل الارتقاء حتى تصل إلى عنفوان شبابها ، قبل أن تغرب شمسها فى محيط الفناء ، وهى هواية قديمة تدفعنى إلى البحث فى ثنايا التاريخ عن الظروف التى تؤدى إلى بروز دول وممالك .. واختفاء أخرى من على خريطة العالم ، فاللحظات التى تومض بنشوء قوى جديدة تبدو كعلامات بارزة على مسار التاريخ ، وتدعو إلى التأمل والانبهار .

وهى أشبه بعمليات المخاض بالنسبة للتاريخ الطبيعى ، فكلاهما تسفر عن ولادة كائن جديد ، فريد فى شخصيته وطباعه وعواطفه وميوله وغرائزه ، وكلاهما يحدث نتيجة تراكمات وتفاعلات كيميائية بين عدة عناصر بالغة التعقيد .

وكذلك نزعة الفناء التى تصيب الدول بعد أن تدب فيها عوامل الشيخوخة ، إنها أشبه برعشة الاحتضار التى تسبق خروج الروح من الجسد الانسانى ، فالشبه بين الكائن الانسانى والكيان السياسى ليس أمراً غريباً ولا مستبعدا ، ولو أغمضت عينك قليلا وعقدت مقارنة بين أشخاص تعرفهم ، وبين الدول المتناثرة على القارات الخمس ، فسوف تجد بينهما شبها كبيرا .

فأنت تعرف انساناً سهل الطويه ، حلو المعشر ، لين العريكة ، أشبه بنسمة صيف ندية .. لا يعادى أحداً .. ولا يتصور أن له أعداء ، ، كذلك تجد بين الدول من تتمتع بهذه المزايا الحميدة ، وأنت قد تعرف من البشر من يتصف بالأنانية والجشع والرغبة فى الاستحواذ على مقتنيات الآخرين .. فلا يملأ عينه إلا التراب . ولو استرجعت معلوماتك عن بعض الدول .. فسوف تكتشف من بينها من تميل إلى الطمع فى ثروات غيرها ، والسيطرة على مصادر رزقها والتحكم فى مواردها.

وأنت قد تصادف شخصاً مشاغباً ، لا يكف عن إثارة المتاعب لكل من يتعامل معه ، فيجنح إلى التسلط والبطش كما تجد من الدول من تعمد إلى إثارة القلاقل وتدبير الانقلابات والتدخل فى شئون غيرها ، وربما تجد إنساناً سلبياً يعيش فى (حاله) ولا يحمل نفسه عناء المشاركة فى هموم الناس ، كذلك تجد دولة تحكم على نفسها بالعزلة والحياد البارد ، والابتعاد عن قضايا العالم ..

وأوجه الشبه بين البشر والدول ، كثيرة ، حتى فى النواحى العقلية والوجدانية ، فكما يستمد بعض الناس مكانتهم الإجتماعية من رقيهم العقلى والثقافى ، فإن بعض الدول تستمد ثقلها العالمى من أصالتها وتراثها ومن حضارتها حتى ولو كانت تفتقر إلى القوة المادية أو العسكرية .. ولكن أبرز وجوه الشبه بين الانسان والدولة هو أن كليهما يمر بنفس المراحل الزمنية التى يمر بها الآخر منذ ولادته ، ويسير تطوره فى خط بيانى يبدأ من الطفولة ويصل إلى ذورة العطاء فى مرحلتى الشباب والكهولة ، ثم تدب فيه الشيخوخة فالفناء ...

ولا يزال نقاد التاريخ يبحثون عن السر فى تدهور الدول ، والعوامل التى تؤدى إلى شيخوختها وتذهب

بهم البحوث مذاهب شتى وتختلط فيها عناصر داخلية بظروف خارجية طارئة .

فالمماليك ، بلغوا عنفوان قوتهم فى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى ، وتمكنوا خلال عشر سنوات — فقط — من صد قوتين من أعظم القوى العالمية التى برزت فى ذلك العصر ، وهما قوة الصليبين القادمين من الغرب وقوة المغول الزاحفين من الشرق .

وسوف يذكر التاريخ لهؤلاء «العبيد» أنهم كانوا القوة النامية التى كتب لها أن تقتلع آخر جذور الصليبية من الشرق الإسلامى ، كما كتب لهم أن يكونوا الصخرة التى تحطم عليها الزحف المغولى الذى خرج من بطن آسيا كالاعصار المدمر ..

ولكن ، امبراطورية المماليك — التى قامت على أنقاض أسيادهم الأمويين — مالبث أن اعتراها الوهن والضعف ، ودبت فيها الشيخوخة ، بعد أن ركن أصحابها إلى حياة الدعة والخلاعة والمجون ، وتخلوا عن نزعتهم العسكرية وهى عماد وجودهم — كما غفلوا عن متابعة فنون الحرب والنزال ، فتجمدوا داخل قوالب عسكرية متخلفة ، وتخطاهم الزمن الذى أسلم الزمام إلى قوة أخرى خرجت

كذلك من آسيا الكبرى لتتمركز فى أسيا الصغرى ، وتجابه الامبراطورية الرومانية الشرقية ، فتحطم كبرياءها ، وتقتحم عاصمتها المقدسة — القسطنطينية — وتجعل منها عاصمة لامبراطورية إسلامية جديدة تحمل اسم (عثمان) ابن ارطغرل .

وكان لقاء المماليك مع الأتراك العثمانين فى مرج دابق قرب حلب — منظراً مثيرا للبكاء والسخرية فى آن واحد ولكنها نواميس الحياة .. لاترحم ولا تجامل ولا تحابى.

ولك أن تتصور جنود المماليك — الشجعان الافذاذ — وهم ثابتون فوق خيولهم كالشم الرواسى ... والسيوف تلمع فى أيديهم انتظاراً لساعة النزال .. ثم يفاجأون بالبارود ينهمر عليهم كطير الأبابيل .. يحصدهم من كل جانب .. فيفرون كالجرذان المذعورة فى ساحة مرج دابق

لقد جاء أبناء عثمان ابن ارطغرل حاملين على أكتافهم آخر مخترعات العصر .. من بنادق ومدافع وأساليب وفنون .. بينما كان المماليك يتمسكون بالقتال بالسيف ، ظناً منهم أن الدين يحرم القتال بغير السيف ..

وكان لقاء بين الفتوة العارمة... والشيخوخة الغاربة..
وكانت النهاية التى تثير البكاء والسخرية معا ..

ومرة أخرى . بدأت عوامل الفناء تدب فى جسد الامبراطورية العثمانية.. بنفس الجراثيم التى أدت إلى هزيمة المماليك : التخلف عن تطورات العصر ، والركون إلى حياة البذخ ، والوقوع فريسة الملذات والشهوات .. وسيطرة الجوارى والغانيات على أمور الحكم .. وتسليم ذقن الدولة إلى عناصر غريبة التكوين أشبه بأطفال الأنابيب — واسمهم «الانكشارية» .. تجمعهم السلطة من الولايات المسيحية وهم فى سن الطفولة .. ثم تضعهم داخل معسكرات يتعلمون فيها فنون الحرب والقتال .. ولكنها كانت عناصر منبتة الجذور بالمجتمع الانسانى .. فلم يسمح لأفرادها بالزواج . وبمرور الزمن أصبحت الانكشارية مصدر إرهاب للخلفاء والسلاطين.. وحجر عثرة فى سبيل إدخال فنون العسكرية الحديثة التى كانت تزدهر على أيدى الإوروبين .. ووقعت الانكشارية فى نفس الهاوية التى وقع فيها المماليك .. هاوية الجمهود والتخلف .. والغيبوبة عما يجرى فى العالم من تطورات.. ومالت شمس العثمانيين نحو المغيب .. وأصبحت دولتهم الرجل المريض — الذى تكالبت أوروبا النامية على القضاء عليه وإخماد أنفاسه فى ختام الحرب العالمية الأولى ..

كنت أتمنى أن أستعرض الأسباب والدواعى التى تؤدى إلى تآكل الدولة وانهيارها .. ففيها عظة وعبرة وهى تثير فى نفسى تلك المشاعر التى تثيرها ارتعاشه وهى تنسدل فى ختام تراجيديا حزينة .. ويستوقفنى دائماً من كل هذه الأسباب عامل داخلى محض ، أغاض فيه نقاد التاريخ ، وهو غفلة الدولة عما يجرى حولها من أحداث وتطورات ، وتجاهلها لما يحاك ضدها من قلاقل ومتاعب.

إنها إغفاءة الموت التى تحمل معها خطر السكون الأبدى ، ولعل « أبرز مثل يحفظه التاريخ العربى هو الطريقة التى تم بها الانقلاب العباسى الذى أطاح بالدولة الأموية ، وكيف أمكن تدبير هذا الانقلاب تحت سمع وبصر الأمويين .. وهم لا يشعرون ..

فالمعروف أن الأمويين بطشوا بكل من توسموا فيه خطراً يهدد كيانهم وكان الهاشميون بالطبع أكثر من تعرض للتنكيل ،وخاصة الطالبيين منهم ، ولكن الأمويين استثنوا من هذا الاضطهاد الفرع العباسى الذى ينتمى إلى عبدالله بن العباس ، واستقدموا ابنه «عليا» وقومه ، وأنزلوهم منزلا طيباً ، وأسكنوهم فى قرية تسمى «الحميمة» تقع على مشارف دمشق وأجزلوا لهم العطاء ، وقابل

«على» هذا الكرم بما يستحقه من عرفان .. فقضى حياته فى هدوء دون أن يصدر منه أى فعل مناوئ لسلطة الأمويين .

ولم يشترك فى أى مؤامرة حيكت للقضاء عليهم ..

ولكن الخطر جاء من ابنه «محمد» إذ انتقلت إليه زعامة البيت العباسى أثر وفاة ابيه ، وكان محمد شاباً طموحاً ، وسياسياً محنكا . . استوعب كل الأسباب التى أدت إلى فشل الحركات المناوئة لبنى أمية ، ومن أهمها أن هذه الحركات كانت علنية ، وكانت أشبه بذوبعات انفعالية سرعان ما تخمد ، ولم تكن لها جذور شعبية متينة ..

وبدأ محمد فى تنظيم القوى المعارضة للبيت الأموى ، من غير العرب ، ووجد فى إقليم خراسان أرضا صالحة لاستنبات بذور المقاومة ضد السلطة الحاكمة فى دمشق .. وهى إذ ذاك سلطة عربية الشكل والمضمون ، حتى تمكن من تجنيد كل الحاقدين والناقمين بزعامة أبو مسلم الخراسانى وتم كل ذلك عن طريق التدبير السرى ، فكان الدعاة ينقلون التعليمات من الحميمة إلى الكوفة ، ومنها إلى خراسان وفق تنظيم دقيق . ولم يكن خلفاء بنى أمية

يتصورون أن العقل المدبر للانقلاب يكمن فى عقر دارهم ، وعلى بعد أمتار من قصر الخليفة . . وكان عامل الأمويين على خراسان ، قائداً عربياً شهماً ، شاعراً بليغاً أسمه نصر بن سيار ، أفزعه انتشار الثورة فى الاقليم ، وشعر بالأرضى وهى تميد من تحت قدميه ، فكان يبعث بتحذيراته إلى الخليفة مروان بن محمد فى قصائد من عيون الشعر العربى . ومن أبرزها هذه القصيدة :

أرى خلل الرماد وميض نار
ويوشك أن يكون لها ضرام
لئن لم يطفها عقلاء قوم
يكون وقودها جثث وهام
فان النار بالعودين تذكى
وان الحرب أولها كلام
أقول من البلية ليت شعرى
أأيقاظ أمية أم نيام ؟
فان كانوا لحينهم نياماً
فقل قوموا فقد حان القيام.

ولكن تحذيرات نصر ذهبت أدراج الرياح . فقد نفذ السهم .. وبلغ السيل الزبى .. وكانت نهاية الأمويين الفاجعة .

العاشر من رمضان ... الهندى

وانت تصوم فى اليوم العاشر من رمضان لامناص من أن تطوف بك ذكرى هذا اليوم المجيد القريب ، ولا بد أن تسترجع أحداثه وتستعيد وقائعه ما استطعت إلى ذلك سبيلا ، فتستشعر فى وجدانك شيئاً من الفخر والاعجاب بهذا النفر من أهلك وعشيرتك وقد خلعوا رداء الذل والضعف والخوف ، ثم أمدهم الصوم بطاقة روحية قوامها الصبر والجلد .. وأبدلهم الله من بعد . خوفهم أمنا .. ومن بعد ضعفهم قوة وعز ما . فانقضوا على عدوهم يغسلون عار الهزيمة .

ولكنى لن أسرد عليك شيئاً من أحداث هذا اليوم المجيد القريب فقد فاضت بها أقلام الكتاب والمعلقين. بل سأغوص بك فى بطون التاريخ لنعيش معاً وقائع يوم شبيه ليومنا القريب وإن باعدت بينهما فروق الزمان والمكان ، فبينهما من فروق الزمان ثلاثة عشر قرناً أو تزيد ، وبينهما من فروق المكان ما هو قائم بين بلاد السند وبين هضبة الجولان وصحراء سيناء ، أما بينهما من وجوه الشبه فانه موضوع حديثنا اليوم ، فكلاهما وقع فى العاشر من رمضان وكلاهما حقق للمسلمين

نصراً وعزاً ، وإن كان أولهما لم يأخذ حظه من الشهرة والذيوع عند جمهور المسلمين ، فليس هذا ذنب اليوم المقصود ، ولكنه مسئولية جمهرة الكتاب الذين تعودوا على التركيز على المعارك الكبرى اللامعة فى تاريخ الإسلام فهم لا يملون من الحديث عنها وترديد أمجادها . وليس فى هذا من مأخذ بشرط أن يواكبه اهتمام آخر بغيرها من المعارك والملاحم والأيام المجيدة فى تاريخنا العظيم ، ولك أن تعجب بهذه الحظوظ التى تفرض أحكامها على الأيام كما فرضتها على الأفراد والأشخاص . فمنها ما هو شهير ذائع الصيت ، ومنها ما هو محروم من أدنى نصيب من الشهرة والذيوع . ولقد شاء حظى أن أكون نصيراً للمظلومين والمضطهدين والمحرومين سواء أكانوا بشراً يتحركون أم جماداً ثابتاً أم أياماً مستكنة فى عمر الزمان ولهذا رغبت فى أن أكشف لك الستر عن وقائع هذا اليوم المجيد البعيد وأجلو لك ما سبقه من ظروف ، وما دار من حوله من أحداث وما انتهى إليه من نتائج .

فى بلاد السند

والعاشر من رمضان الذى أنشده وقع فى أخريات القرن الهجرى الأول . فى زمن انطلقت فيه كتائب الفتح الإسلامى شرقاً وغرباً فبينما جيوش موسى بن نصير

ومولاه طارق بن زياد تعبر المضيق إلى فاندلوسيا (الاندلس)، كانت جيوش قتيبة بن مسلم تغزو فيما وراء النهر وتدق تخوم الصين، كان ذلك فى زمن الخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك، وما أن تولى الحجاج بن يوسف الثقفى حكم العراق سنة ٨٦هـ حتى يمم بصره نحو الجنوب حيث بلاد السند، بوابة القارة الهندية ذات الحضارة القديمة والثروات الهائلة والطرق المفتوحة إلى جنوب شرق آسيا.

ولم تكن هذه هى المرة الأولى التى تتجه فيها أنظار العرب إلى بلاد السند، فقد كان العرب الجاهلين اتصالات تجارية بأصحابها براً وبحراً، حتى تولد لدى العرب إلمام كاف بأحوالها وظروفها الداخلية، وفى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه وارضاه تمكن الحكم بن أبى العاص من الوصول بحراً إلى بعض سواحل الهند، وشجعته الغنائم الهائلة التى عاد بها على مواصلة الكرة، فبعث بأخيه المغيرة إلى ميناء الدبيل. الواقع على مصب نهر السند (على مقربة من مدينة كراتشى الحالية) فانتصر المغيرة وعاد سالماً غانماً، وفى خلافة على بن أبى طالب رضى الله عنه توجه الحارث بن مرة العبدى إلى هناك ولكنه قتل وجميع من معه، وفى عهد

معاوية غزا المهلب بن أبي صفرة ذلك الثغر ثم مضى حتى بلغ لاهور واشتبك مع أهلها ولكن دون نتيجة تذكر . وظل المسلمون يوالون الاغارة على الاقاليم المحيطة بالسند بعد أن أصبحت ملجأ للثائرين والخارجين على سلطان الدولة الأموية ، ففتحوا مكران وقندها حتى إذا كان الحجاج ، بعث إلى مكران سعيد بن اسلم الكلابي فوثب عليه ثائران عربيان فقتلاه ثم لجآ إلى (داهر) ملك السند فلقيا عنده كل ترحيب ومكرمة ، عندئذ بعث الحجاج يستأذن الوليد في فتح السند وتأديب صاحبها داهر ، إلا أن الوليد لم يجبه إلى ما يريد ، ولعله كان مشفقاً على جيوش المسلمين من اتساع الفتوح ، وبقى على رفضه حتى كانت واقعة أخرى ارتكبها داهر فجنى بها على نفسه وأخرج الخليفة عن تحفظه ، إذ كانت سفينة عربية تمخر عباب خليج عمان وهى تحمل على ظهرها زوجات وبنات تجار عرب ماتوا فى جزيرة الياقوت (سيلان) فانقض عليها قراصنة من الديبل فاستولوا على السفينة واعتدوا على النساء وأسروهن ، فأرسل الحجاج إلى داهر محتجاً وطالباً تخليص السبايا وإرسالهن إلى بلادهن ولكن داهر ركب رأسه واستخف برسالة الحجاج فحق عليه العقاب ، عندئذ أذن الوليد للحجاج بفتح السند ،

فعهد بهذه المهمة الجريئة إلى زوج ابنته وابن أخيه ، الشاب الجسور محمد بن القاسم ولم يكن قد جاوز العشرين وجهزه بجيش قوامه ستة الآف من خيرة جند الشام والعراق ومعهم عدد مماثل من راكبي الجمال ، يتبعهم قطار من ثلاثة الآف جمل يحمل كل ما يحتاجه الجند من مؤونة حتى الخيوط والابر والمسال وكان من معدات الجيش عدد من آلة المنجنيق المخصصة لرمى السقلاع والحصون والأسوار بالحجارة وكرات الحديد ، وكان أكبرها منجنيق ضخم يسمى (العروس) يعمل على تشغيله خمسمائة رجل وسيكون لهذا العروس شأن كبير فى سير المعارك .

الزحف الكبير

وبدأ البطل الشاب زحفه الكبير سنة ٩٢هـ فعبر مكران حتى بلغ الديبل فحاصرها وبدأت أولى ملاحم القتال بعد أن حاصر المدينة وانهمرت عليها قذائف المنجنيق ، وعلم محمد بن القاسم فيما علم أن المنادكة يعتقدون فى طلسم يستقر تحت العلم الأحمر الأكبر الذى يرفرف فوق برج المعبد القائم وسط المدينة ويتصورون فى الطلسم سر قوتهم . فأصدر محمد أوامره إلى (العروس) أن تركز

قذائفها على الطلسم المزعوم ، وبدأت قوائم البرج تتهاوى وأحجار المعبد تتساقط .. والهنادكة فى ذهول من أمرهم ، واكتشفوا كم كانوا مخدوعين فى أصنامهم فتحطمت هممهم وانهارت روحهم المعنوية فاستسلموا للقائد المسلم فدخل المدينة وقد ترددت فى جنباتها التهليل والتكبير ، ولم تأخذ نشوة النصر والظفر برأسه . وظل مقيماً على مواثيق الفتح التى بثها الخلفاء الراشدون . ومنع جنوده من إيذاء أهلها ، وعاملهم معاملة طيبة كريمة بقيت ماثلة فى اذهانهم حتى بعد أن غادرهم . وترك فى المدينة حامية للدفاع عنها ، وتقدم ببقية جيشه فعبر بهم نهر السند إلى مدينة (نيرون) فلما وصلها أتاه وفد كهنتها البوذيين وابرزوا له أماناً صدر إليهم من الحجاج ، فأمنهم ودخل المدينة دون قتال وفى نيرون بنى المسلمون مسجداً واختطوا مساكن لهم .

ومضى محمد بن القاسم يفتح المدن التى فى طريقه دون أن يلقى مواجهة تذكر من داهر ملك السند الذى كان يعد العدة لهذا اللقاء الحاسم مع بداية شهر رمضان من عام ٩٤هـ وتمكن داهر من تجميع جيش قوامه خمسين ألف فارس وتحصن وراء أسوار مدينة (راور)

استعدادا للقاء جيش المسلمين . وكان شهر رمضان يوافق شهر يونيو وقد بلغ الحر درجة لاتطاق .. ولكن جيش المسلمين الصائمين لم يأبه لهذا القيظ الفاتك . ولابسهام العدو التى بدأت تنهمر كالمطر ومضى محمد بن القاسم يقيم جسراً على نهر مهران تحت وابل السهام حتى تمكن وجيشه من عبور النهر تحت ستار الليل . ولم تشرق الشمس حتى وجد المسلمون أنفسهم وجهاً لوجه أمام أكبر جيش وأعظم قوة اعترضت طريقهم منذ وطئت أقدامهم أرض السند .

تلفت محمد بن القاسم إلى داهر فوجده على ظهر فيل ضخم يتقدم صفاً طويلا من الفيلة . (المدرعة) التى تثير الرعب والفزع فى النفوس ، وشعر المسلمون بتفوق العدو عليهم فى العدد والعدة ، ولكنهم لم ينكصوا أو يجفلوا أو يتراجعوا ، فقد كانت الشهادة إحدى الحسنيين اللتين ينشدانهما . وفى اليوم السادس من رمضان شد المسلمون النكير على عدوهم . واستمر القتال سجالا أربعة ايام ، وفى اليوم (العاشر من رمضان) قاد داهر المعركة بنفسه بعد أن لاحظ تقدم المسلمين ، وقاد صف الفيلة ليبث الرعب فى نفوس أعدائه . ولكن الحمية

ثارت فى نفوس المؤمنين الصائمين . فانقضوا عليه فى بسالة منقطعة النظير ورموا الفيل الذى يركبه داهر بسهم نافذ فذعر الفيل وولى هارباً ، ظل داهر يقاتل راجلا إلى أن قبض إليه جندى مسلم فقتله ، وما أن غربت شمس اليوم حتى كان المسلمون قد فتحوا الحصن ودخلوه ظافرين مكبرين ..

نهـــــاية بطـــل

وتوالت انتصارات محمد بن القاسم ودانت له كبريات المدن . حتى بلغ الملتان أكبر مدن السند الأعلى وأحصنها على الاطلاق . فقاتله أهلها وقاوموه وطال حصار المسلمين للمدينة حتى نفذت مؤونتهم ، ثم أقبل رجل مستأمن فدلهم على مدخل الماء الذى يشرب منه أهل المدينة فغوره ابن القاسم ، وأرغمهم بذلك على النزول على حكمه ، ولم تلبث أن خضعت الملتان وسلمت ، وفى ذلك الحين تلقى البطل الشاب نبأ وفاة عمه الحجاج فأوقف الفتوح وعاد إلى حصن (راور) . ثم أتاه نبأ وفاة الخليفة الوليد وتولية أخيه سليمان بن عبد الملك . ولم ينس سليمان أن الحجاج كان من القادة الذين أيدوا أخاه فى نقل ولاية العهد إلى ابنه بدلا من أخيه ، ولم يلبث

الخليفة الجديد أن صب جام غضبه على صهره وابن أخيه فاتح السند محمد بن القاسم . فأمر بعزله وتسفيره مقيداً إلى العراق . وقبل مغادرته خرج أهل السند يبكونه ويبكون عدله وسماحته وشهامته ونخوته .

ويبكون قبل ذلك شبابه الغض الذى سفكه سليمان عندما أمر بتعذيبه حتى الموت. ثم فصلوا رأسه عن جسده وبعثوا بها إلى سليمان حتى تهدأ ثائرته ولم تذهب جهود البطل المسلم عبثاً . فقد فتحت أبواب القارة الهندية للدين الإسلامى ، وتوالى سكان السند بعد الفتح إلى اعتناق الإسلام طواعية واختياراً . ولم يمض وقت طويل حتى أصبح هذا الاقليم ضمن أجزاء العالم الإسلامى. وأصبحت ملتان مدينة عالمية، ووضعت الأسس الأولى لقيام حكومة إسلامية . ومن السند انتشرت السيادة الإسلامية إلى سائر أنحاء شبه القارة الهندية وانتشر الإسلام إلى بلدان جنوب شرقى آسيا . ومن الحقائق التى تثلج الصدر أن هذه الفتوح الجديدة تمت على يد عمرو بن محمد بن القاسم الذى سار سيرة أبيه فى الشجاعة والسماحة والنخوة . واسترد البلاد التى عادت إلى الكفر بعد مصرع أبيه .

الثقافة العربية

ولسوف تمضى ثلاثة قرون تعيشها السند فى ظل الخمول ، حتى ينهض لفتحها مرة أخرى محمود بن سبكتكين (التركى) الذى أسس دولة فتية شملت الجزء الأكبر من فارس وبلاد ما وراء النهر ثم امتدت حتى شملت بلاد الأفغان وشمال الهند ، وبعد محمود توالت على بلاد الهند دول إسلامية كثيرة إلى أن كان القرن السادس عشر حيث قامت فيها امبراطورية إسلامية مغولية ظلت قائمة حتى منتصف القرن التاسع عشر .

وكان من الطبيعى أن يؤدى هذا التواجد التركى والمغولى إلى ضعف التواجد العربى واندثار اللغة العربية فى شبه القارة الهندية . فمعظم الجيوش والعناصر والدول التركية والمغولية كانت فى معظمها حديثة عهد باعتناق الإسلام ، وقد نقلت معها الثقافة الفارسية ومظاهر الحياة التركية والفارسية والمغولية ، ولهذا انتشرت فى المجتمع الإسلامى بالهند اللغة الفارسية (لغة الثقافة فى ذلك العصر) واللغة الأوردية ولم تنتشر اللغة العربية ، وبالتالى لم تزدهر الثقافة العربية فى الهند ازدهارها فى الأقاليم والدول الإسلامية الأخرى وساعد على هذا ان معظم العلماء

والشيوخ الذين وفدوا على الهند كانوا من علماء ماوراء النهر المشغوفين بالحضارة اليونانية والثقافة الفارسية ولهذا تأثرت الثقافة الإسلامية فى الهند بهذه البصمات ، ولم تقم على أسس سليمة قوية من الثقافة العربية ولكن ليس معنى ذلك أن الهنود لم يعرفوا اللغة أو المؤلفات العربية . بل لقد عرفوها وانتشرت بينهم وتعلمها الكثيرون منهم وألفوا بها . ولكن الذى حدث أنها كانت أقل انتشاراً وتأثيراً فى المجتمع الإسلامى الهندى إذا ما قورنت ، بالثقافتين الفارسية والتركية المغولية ..

ومهما بلغت درجة الثقافة العربية فى المجتمع الإسلامى بالهند فإن ضعفها يرجع إلى زوال الوجود العربى منها بعد نكبة محمد بن القاسم ، ولك أن تتخيل مستقبل اللغة العربية والثقافة العربية فى هذه البلاد الشاسعة لو قدر لهذا البطل المحسور أن يبقى فى الهند وينهج فيها النهج الذى سلكه قادة الفتح الإسلامى فى الشام ومصر وأفريقية فكانت هذه كسباً للعربية لساناً وحضارة وثقافة.

البطل يظهر فى الليالى الحالكات

دائماً يظهر البطل فى الفترات الحرجة من تاريخ الإسلام .. عندما يدلهم الخطب . ويعم اليأس . ويسود الظلام . وتتحلل قوائم الدولة . وتتغلب عليها قوى الشر . ويموت الأمل فى صدور الناس .. عندئذ يظهر البطل من حيث لايتوقع أحد .. فيتقدم بكل جسارة ليتحمل المسئولية ، ويعيد الثقة فى النفوس المنهارة ، ويجمع إليه القوى الخائرة فيبعث فيها روح التحدى .. ويمسك بين يديه خيوط الحركة الذاتية الكامنة فى الإسلام كدين قادر على الصمود والتغلب على الكوارث والنكبات وبعدها يبدأ الخط البيانى فى الصعود .. فيبدو ما كان بالأمس وكأنه حلم كئيب ..

والبطل التاريخى الذى نقصده ، يختلف عن مثال آخر من الأبطال ازدان بهم تاريخ الإسلام كالخلفاء والوزراء والولاة والقضاة والفقهاء والعلماء والفلاسفة الذين صاغوا مادة التاريخ الإسلامى السياسى والثقافى والإجتماعى .. فهؤلاء مهمتهم بناء الدولة بعد أن يشتد عودها وترسخ قواعدها .. أما البطل التاريخى فلا يظهر إلا فى لحظة الضعف والانهيار .. عندما يتلاشى وجود هؤلاء ويخفت

صوتهم ويضعف سلطانهم ويضحى مصير الدولة فى مهب الريح .. عندها يظهر البطل المنقذ ليعيد إلى الإسلام مجده وخلوده ...

** خذ مثلا ...

حالة الظلام القاتل التى عمت العالم الإسلامى ، فى منتصف القرن السابع الهجرى فى أعقاب الهجمة المغولية الشرسة التى دمرت ممالك الإسلام فيما وراء النهر ، وارتكبت من الفظائع والأهوال ما جعل المؤرخين المعاصرين يتحرجون عنه ذكرها حيث خيل إليهم أنه لن تقوم للإسلام قائمة بعدها .. انظر ما يقوله ابن الاثير عن هذا الحادث :

« لقد بقيت عدة سنين معرضاً عن ذكر هذه الحادثة استعظاماً لها ، كارهاً لذكرها . فأنا أقدم إليها — رجلا وأؤخر أخرى .. فمن يسهل عليه أن يكتب نعى الإسلام والمسلمين . ومن الذى يهون عليه ذكر ذلك .. فياليت أمى لم تلدنى ، وياليتنى مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً ... » .

من يقرأ هذه الصرخة الوجيعة لابن الاثير . وهى تعبير صادق عن فداحة الحدث ، يخيل إليه أن كل شئ

قد انتهى ، وأن المغول ختموا على تاريخ الإسلام بالفناء ولكن شاء الله لهذا الدين أن يصمد فى وجه الاعصار ، وفى هذا الديجور الحالك بزغ نجم فى الأفق الغربى من ديار الإسلام ليجمع الصفوف ويقود الجيوش ويفتك بالمغول فى عين جالوت .. من يتصور أن يكون النجم الساطع مملوكاً بيع فى سوق الرقيق .. ولكنها قوة الإسلام التى تثبت دائماً قدرتها على إفراز الابطال فى الليالى الحالكات ..

والبطل المنقذ ، يظهر استجابة لظروف المرحلة ، وهو غالباً نتاج قوتين متنافرتين من حيث الاتجاه :

القوة الأولى تهب من الخارج فى شكل قوات غازية ،

والقوة الثانية تتخمر فى الداخل من ركام الفساد والعلل والنفايات التى تفرزها النفس البشرية .

** فقوة التحدى الخارجى لم تكف عن طرق حدود الدولة الإسلامية . خاصة بعد أن توقف الزحف الإسلامى ، ولم يتوقف أعداء الإسلام عن اقتناص كل فرصة تلوح لتصفية الحساب القديم . واستعادة البلاد التى دخلت فى حوزة الإسلام ، ومن شأن هذا التحدى الخارجى أن يساعد على نضوج الوعى واليقظة ويثير الهمم فى النفوس ، وبالتالى يتعجل ظهور البطل .

** أما قوة التحدى الداخلى فمن شأنها تعطيل عملية الافراز ، واصابة جهاز الدولة بالعقم والشلل ، وهذه القوة السلبية تتمثل فى مجموعة مخيفة من العلل والانحرافات .. الصراع على السلطة .. الخلافات المذهبية .. الصراعات القبلية .. صراعات شعوبية .. مؤامرات ودسائس القصور .. الخ ..

* : ومن تلاقح هاتين القوتين كانت تتوالد بذرة البطل ، فتنمو ، جنيناً فى رحم المجتمع ، حتى إذا خرج إلى حيز الوجود بدأ فى استخدام قوانين الحركة التى تأبى الركون ، فيبدأ بالقضاء على العلل الداخلية ثم يتجه إلى بناء جبهة إسلامية موحدة تواجه العدو الخارجى ..

قائمة الابطال

وقائمة الابطال من هذا النوع حافلة .. بعضهم شع ضوءاً مبهراً لايزال حياً فى قلوب المسلمين مثل نور الدين محمود وصلاح الدين الايوبى والظاهر بيبرس ومحمد الفاتح ومحمد على الكبير ..

والبعض الآخر كان نصيبهم من الشهرة متواضعاً ، وبقيت ذكراهم محصورة فى كتب التاريخ لاتكشف عن

عظمتها إلا للباحثين والمنقبين . مثل السلطان السلجوقى ألب أرسلان الذى وقعت فى عهده أول (بروفة) عامة للحروب الصليبية قبل ثلاثين عاماً من اندلاعها على نطاق دولى . واستطاع هذا السلطان أن يكسب للإسلام معركة من أعظم المعارك وهى معركة ملاذكرد ، (٤٦٤هـ – ١٠٧١م) وفيها تمكن من دحر جيوش الدولة الرومانية البيزنطية وأسر امبراطورهم رومان الرابع .

كان ظهور ألب أرسلان مؤشراً على الذين شغلوا مرحلة الصراع الدامى بين المسلمين والصليبين على مدى قرنين . وكانت دولة السلاجقة الاتراك بداية لظهور الدول الإسلامية التى غلب عليها الطابع العسكرى ، فما أن تضعف دولة وتتحلل بفعل الصراعات الداخلية ، حتى تنهض من جوفها دولة أخرى لتتحمل الراية وتواصل الرسالة .. وشهد تاريخ الإسلام منذ القرن السادس الهجرى سلسلة متعاقبة من الدول والزعامات الإسلامية التى كان لها شرف الدفاع عن الإسلام وضد موجات الغزو التى أخذت تتوالى من الشرق والغرب على قلب العالم الإسلامى .. فمن جوف الدولة السلجوقية نشأت دولة (الاتابكة) التى أسلمت الزمام إلى الدولة الأيوبية التى لم تعمر طويلا بعد وفاة صلاح الدين فآلت مقاليد

الأمور إلى المماليك الذين نشأوا فى كنف البيت الأيوبى .. وعندما انتهى دور المماليك كان ميزان القوة الإسلامية قد تحول إلى الأناضول حيث قوة العثمانين النامية ، وعندما غربت شمس هؤلاء ظهر محمد على الكبير ليرث تركة الرجل المريض . ويضع نفسه على عرش ابن عثمان ليحافظ على كيان الامبراطورية الإسلامية من التفكك .. ولكن حركة التاريخ كانت قد نقلت زمام القوة إلى أوروبا بعد نهضتها ، فتكالبت عليه ودفنت أحلامه مع حطام أسطوله فى مياه البلقان .

العالم الإسلامى عند بداية الحروب الصليبية

والآن ... تعالوا نلقى نظرة على العالم الإسلامى فى السنة التى وصلت فيها أول حملة صليبية إلى سواحل الشام (٤٩٢هـ — ١٠٩٩م) (وربما لاحظت هذه المفارقة الغريبة : فمعظم الكوارث التى حلت بالعالم الإسلامى كانت تحدث فى نهايات القرون) .

لم تكن هناك سلطة مركزية واحدة تحكم العالم الإسلامى مثلما كان الحال فى عهد الأمويين . والعباسيين الأوائل وإنما كان هناك أكثر من خلافة ، وأكثر من دولة

مستقلة ، كلها تعيش حالة القلق ، وكل منها تتربص بالأخرى وتتحين الفرصة للانقضاض عليها وسلب جزء من أراضيها ، بل والاطاحة بها وادخالها ضمن ممتلكات الدولة الأقوى .

فمصر كانت تعيش أخريات الحكم الفاطمى ، بعد أن عبرت دولتهم مرحلة الفتوة والقوة وانحدرت نحو الشيخوخة والاحتضار ، وكان على رأس الخلافة (المستعلى) أول الخلفاء الضعاف الذى كان عهده مسرحاً للفتن الدامية التى نشبت بين فرق الجند متعددة الجنسية.

عدداً من الخلفاء الضعاف كان أخرهم (العاضد) الذى شاء حظه العاثر أن يشهد بزوغ نجم الناصر يوسف صلاح الدين بن أيوب .. وكان العاضد عاجزاً عن فهم أبعاد الخطر الصليبى المجاور له فى فلسطين ، وتخلى عن السياسة التى التزم بها أسلافه الأوائل ، والتى ترى ربط مصير مصر بمصير الشام سداً منعاً ضد الخطر الخارجى ..

وباختصار لم يكن العاضد رجل لمرحلة فدفع ثمن هذا العجز من وجوده الشخصى ومن وجود خلافة الفواطم التى أقامها المعز لدين الله فى مصر واستمرت قرنين .

انشطارات الدولة

أما الدولة العباسية فكانت قد تفككت وانشطرت إلى بؤرات صغيرة على شكل دويلات وممالك مستقلة لاتربطها بالخليفة القابع فى بغداد سوى ترديد اسمه فى خطب الجمعة ونقش اسمه على العملة ، ومنذ منتصف القرن الثالث نشأت دويلات متنافرة عرقياً وسياسياً ومذهبياً ، دولة زيارية فى جرجان ، وسامانية فى فارس وحمدانية فى الموصل ، وبويهية فى العراق ، وطولونية فاخشيدية ثم فاطمية فى مصر ، وغزنوية فى الهند ، والافغان .. الخ .. فضلا عن الثورات والانتفاضات التى فتتت فى عضد الدولة .

وفى أوائل القرن الخامس بدأ العنصر التركى يظهر بشكل مسيطر على مسرح الأحداث ، بعد أن كان وجوده متداخلا فى نسيج الحياة الإسلامية ، ولم يكن الخليفة العباسى (المعتصم) يتصور أن الثغرة التى فتحها أمام العنصر التركى سوف تتسع إلى المدى الذى جعل الاتراك يرثون مقاليد السيادة على العالم الإسلامى من العرب والفرس لكن الوجود التركى اتخذ صفة الانتشار الجماعى ط مع هجرة إحدى القبائل التركمانية من موطنها الأصلى

فى سهوب القرغيز (فى الاتحاد السوفيتى حالياً) إلى الأطراف الشمالية من الدولة الإسلامية ، وكانت هذه القبيلة التى تحمل إسم زعيمها (سلجوق بن دقاق) قد اعتنقت الإسلام وحالفت الدولة السامانيه فى صراعها مع الدولة الغزنوية . ثم عظم شأنها وقوى سلطانها على يد طغرل بك و لم ينتصف القرن الخامس حتى اقتحم بغداد وأعلن نفسه سلطاناً فى مقر الخلافه وصارت دولته تمتد من حدود الأفغان إلى حدود الروم فى الاناضول وحدود الدولة الفاطمية فى مصر . وبعد وفاة طغرل بك خلفه ابن أخيه ألب أرسلان الذى سبقت الأشارة إليه ، وبعد وفاة خلفه ملكشاه .. بدأت الدولة مرحلة الانحدار ودب الانقسام بين شعب البيت السلجوقى ، فانتهز قادة جيوشهم (الاتابكة) الفرصة فاستقلوا بالسلطة وانشأوا أتابكيات ظلت محافظة على الطابع العسكرى الذى ساد دولة السلاجقة .. وكان أبرز هذه ألاتابكيات فى الموصل حيث عماد الدين زنكى أول أمير مسلم فكر فى اقامة جبهة إسلامية موحدة لمواجهة الصليبين .

الأمير الشجاع

قبل أن يظهر عماد الدين زنكى على المسرح ، برز فى الموصل أتابك أخر اسمه شرف الدولة مودود ، وكان له شرف السبق فى ايقاظ همة المسلمين فقاد أول هجمة إسلامية على أمارة (الرها) المجاورة له . كان ذلك فى عام (٥٠٣هـ-١١١٠) الصليبية (أى بعد عشر سنوات فقط من قدوم أول حملة صليبية . ولكن من المؤسف أن يلقى هذا الأمير الشجاع مصرعه اغتيالا بيد واحد من طائفة الحشاشين (الإسماعيلية) وهى الطائفة التى نشرت الرعب والفزع فى نفوس السلاطين والقادة والوزراء .. المسلمين ، حيث كان أفرادها ينطلقون من قلعة الموت التى أقامها زعيمهم الحسن الصباح ثم ينبثون فى العواصم الإسلامية لارتكاب جرائمهم ، وسوف نكتشف خلال مسيرتنا قدر الخسائر التى منى بها المسلمون من جراء هذه الاغتيالات .. فبعد استشهاد شرف الدولة مودود ، ظهرت سلسلة من القادة الشجعان ، كان أبرزهم أقسنقر البرسقى الذى نجح فى توسيع أمارته فى الموصل فضم إليها حلب ونقل إليها عاصمته .. وكانت له ملاحم ساخنة مع الصليبين ، ولكن لم يكتب له الاستمرار ،

إذ لقى هو الآخر مصرعه بيد أحد الحشاشين ، فخلفه ابنه عماد الدين زنكى الذى شاء القدر أن يكون أول أمير ينجح فى توحيد الصف الإسلامى وبناء جبهة إسلامية متحدة . ولنا وقفة طويلة مع هذا الأمير الشجاع الذى حمل بجدارة لقب (الشهيد) .

الفوضى والانقسام

فقد أدى ظهور الصليبين فى ديار الإسلام واحتلالهم بعض المواقع الهامة فى قلب العالم العربى إلى بعث روح اليقظة فى نفوس المسلمين ، إلا أنه من المبالغة القول بأن هذه اليقظة ولدت بين يوم وليلة ، فالواقع أن الزعماء المسلمين لم يفطنوا إلى طبيعة الحركة الصليبية ولم يدركوا مراميها وأهدافها الحقيقية أ إلا بعد مرور ثلاثين عاماً من وصول أول حملة صليبية على بلاد الشام ، وهى فترة مكنت الصليبين من ترسيخ أقدامهم فأقاموا ثلاث أمارات صليبية مسلحة فى أنطاكية والرها وطرابلس فضلا عن مملكة بيت المقدس .

وكان العالم لإسلامى ، قبل الغزو الصليبى ، غارقاً فى بحر من الفوضى والانقسام والتشتت ، كانت الحروب الأهلية على أشدها بين الأمراء السلاجقة بعضهم وبعض

وبين السلاجقة الفاطميين فى مصر ، وبين كل من السلاجقة والفاطميين من ناحية والبيوت العربية التى كونت لنفسها أمارات مستقلة من ناحية أخرى .. وزاد من خطورة تلك الفوضى أنها بقيت قائمة حتى بعد أن لاح الخطر الصليبي فى سماء الشرق الإسلامى ، واستمرت خلال المعارك التى دارت بين المسلمين والصليبين ، وليس أدل على ذلك من أن الفاطميين فى مصر فكروا فى مشروع للتحالف مع القوة الصليبية التى قدمت إلى الشام ، نكاية فى خصومهم الاتراك الذين كانوا يحكمون امارات العراق والشام .

وكان صاحب هذا المشروع الوزير الأفضل شاهنشاه الحاكم الفعلى لمصر فى عهد الخليفة المستعلى ، الذى انتهز فرصة تدهور موقف السلاجقة فى الشام ، وبعث إلى الصليبين الذين كانوا يحاصرون أنطاكية عرضاً بأن تكون تلك المدينة من نصيبهم على أن يكون بيت المقدس من نصيب الفاطميين ، ولم يشأ الأفضل أن يضيع الوقت فأرسل جيشاً لفتح بيت المقدس بينما كانت سفارته فى طريقها إلى الصليبين وهم على أبواب أنطاكية . وبالطبع فانهم رحبوا بها كما رحبوا بغزو الفاطميين لبيت المقدس ،

وأفادوا من هذه الخطوة فائدة كبرى لأنها سببت ارتباكاً للاتراك السلاجقة فى أشد الأوقات حرجاً .. وحالت بينهم وبين تنظيم جيوشهم لمواجهة الخطر الداهم .

هذا . . فضلا عن أن السفارة التى بعث بها الفاطميون إلى الصليبين فى أنطاكية أكسبت الغزاة وضعاً سياسياً معترفاً به فى ركن هام من أركان العالم الإسلامى ، ويذكر ابن الاثير كيف أخذ الصليبيون ينهضون بدورهم فى مهارة بالغة بعدئذ ، فلم يكتفوا ببث شعور الطمأنينة فى نفوس الفاطميين ، واعطائهم صورة مضللة عن مشروعاتهم فى بلاد الشام .. وإنما حاولوا أيضاً أن يسدلوا غشاوة على أبصار حكام دمشق . فأرسلوا إلى ملكها «دقاق» ، يطمئنوه على مصيره ويؤكدون له أنهم لايطمعون إلا فى استرداد الأماكن والبلدان التى كانت تابعة للبيزنطيين فيما مضى ، وبعد هذه الخطوة حاول الصليبيون أيضاً استمالة أخيه «رضوان» ملك حلب . . حتى إذا مافرغوا من أمره هو الآخر استطاعوا مواجهة القوى الإسلامية منفردة والتهام الإمارات والمدن الإسلامية واحدة تلو الأخرى ..

حــروب الأخــوين

والمؤسف أن الحرب بين الأخوين «دقاق» و «رضوان» لم تكف بينما كانت الجيوش الصليبية تتدفق على الشام ، بعد أن تواترت الأنباء عن اكتساحها الامارات الإسلامية فى الاناضول . وشرع رضوان ملك حلب فى الزحف على مملكة أخيه فى دمشق لطرده منها ، ولكنه فشل فارتد عائداً إلى حلب ، خائباً فى الأمر الذى طلب وكان حاكم أنطاكيا التركى ياغى سيان متحالفاً مع رضوان ولكنه لم يلبث أن خان سيده وانضم إلى غريمه دقاق وأغراه على أن يقوم هو الآخر بمهاجمة رضوان .. ولكن حظ الأخير لم يكن أفضل من حظ أخيه .

وبقيت الحرب سجالا بين أكبر مدينتين فى الشام بينما كانت الجيوش الصليبية تدق أسوار أنطاكية ، أقوى مدن ذلك العصر تحصينا ومناعة بعد القسطنطينية ، وعندما عجز الصليبيون عن اقتحامها اكتفوا بحصارها لمدة سبعة شهور .. وكانت هذه الفترة كافية لتجميع الجيوش الإسلامية لو لم يكن الشقاق والتمزق سائداً بين الأمراء المسلمين ...

وأفلحت الخطة الصليبية في تضليل الزعماء المسلمين فقد لزم دقاق دمشق لا يحاول التدخل لدفع خطر ، الصليبين عن أنطاكية ، أما أخوه رضوان . فلم يستطع أن يستمر طويلا فى موقفه السلبى تجاه انطاكية التى كانت تدخل ضمن نفوذه ، وبدأ ياغى سيان حاكم المدينة فى تأليب القوى الإسلامية القريبة طالباً النجدة ، فتجمعت بعض الفرق العسكرية من حلب وحمص وحماه وديار بكر ، والتقت عند «حارم» وهى قلعة تبعد ٣٠ كيلو متراً عن أنطاكية .. ووضعت خطة للغزو المفاجئ فى الوقت الذى تهجم فيه حامية المدينة من الداخل فيقع الصليبيون بين نارين ، غير أن المسيحيين فى حلب وحارم وبخاصة السريان والأرمن . علموا بالخطة فأبلغوها إلى الصليبين فوضعوا خطة سريعة مضادة لمواجهة الموقف . ودارت المعركة وانتهت باندحار المسلمين وبات الطريق سهلا أمام الصليبيين لاقتحام حصون المدينة ، ومرة أخرى لعبت الخيانة من جانب الأرمن — دورها فى اقتحام المدينة وتطرف الصليبيون فى قتل من وجدوه بداخلها من المسلمين «فقتل وأسر وسبى من الرجال والنسوان والأطفال مالا يدركه حصر » كما يقول ابن القلانسى ، وأثار خبر سقوط أنطاكية موجة من الذعر

البلدان الإسلامية القريبة «فهرب» من كان بها من المسلمين » فيما كان لهذا الخبر دوى هائل فى العالم المسيحى لايفوقه إلا أثر سقوط بيت المقدس نفسها فى أيدى الصليبيين نظراً لتاريخها الحافل حيث كانت ثالث مدن العالم فى عصر الامبراطورية الرومانية ، وكانت المدينة التى أسس فيها القديس بطرس أول أسقفية مسيحية .

محاولات لم تنجح

وقد ظهرت بعد سقوط أنطاكية محاولات لتجميع بعض القوى الإسلامية وتشكيل قوة موحدة لاسترداد المدينة . وبدأت هذه القوات فى محاصرة الصليبيين وتجويعهم حتى أنهم فكروا فى الاستسلام ، ولكن حال دون نجاح الخطة استمرار العداء بين الأخوين صاحبى دمشق وحلب ، فقد رفض أمير حلب المشاركة فى الحلف الإسلامى على الرغم من أن تأمين مستقبله ومستقبل إمارته كان يحتم عليه أن يتخذ موقفاً أكثر اتزاناً وحكمة ، بعد أن صارت حلب بين فكى الكماشة ، الرها فى الشرق وأنطاكية فى الغرب وكلاهما سقط فى قبضة الصليبيين . ولعل عدم وجود رضوان أمير حلب مع المسلمين أمام أنطاكية . وعدائه لأخيه دقاق أمير دمشق كان من العوامل

التى خلقت جوا من القلق والاستياء فى صفوف المسلمين بل لقد بلغ الأمر بالمسلمين أمام أنطاكية أن أنقسموا على أنفسهم فظهر الشقاق بين الاتراك والعرب « وجرت بين الأتراك والعرب منافرة عادوا لأجلها ، وتفرق كثير من التركمان بتدبير الملك رضوان ورسالته » .

البطـــل يظهر

ولسوف تمضى ثلاثون عاماً على هذا التفسخ صفوف المسلمين . فتحقق الحملة الصليبية أهدافها ويسقط بيت المقدس فى أيديهم ، إلى أن يظهر البطل فى سماء الموصل ، فما أن يتسلم عماد الدين زنكى مرسوم تعيينه أميراً على الموصل حتى يصرف إلى تنظيم إمارته إدارياً وعسكرياً ، مركزاً كل جهده على تكوين جبهة إسلامية قادرة على طرد الصليبيين من بلاد الإسلام ، وكان أول عمل قام به هو توجيه اهتمامه نحو الامارات والمدن المجاورة فعمل على ضمها وإخضاعها لنفوذه ، فقد أدرك أنه لايستطيع أن يطمئن فى زحفه إلى الشام ومجابهة القوى الصليبية إلا إذا أخضع هذه الإمارات الصغيرة حتى لا يتعرض مؤخرة جيشه لخطر الهجوم من الخلف . ورأى أنه من الأنسب فى تلك الاونة أن يهادن

امارة الرها أقرب الامارات الصليبية إليه حتى يتفرغ لاصلاح البلاد وحشد الاجناد لضم حلب باعتبارها مفتاح المرور إلى الأمارات الصليبية ، وقد حقق زنكى هذا الهدف فاستولى على حلب . وكان نجاحه فى ضمها وتحقيق الإرتباط بينها وبين الموصل من أخطر ما يخشاه الصليبيون نظراً لما يمكن أن ينجم عنه قطع الصلة بين اماة الرها وبقية الامارات الصليبية فى الشام ، فضلا عما فى تكتيل القوى الإسلامية نفسها من معانى القوة التى لم يشعر بها الصليبيين حتى ذلك الوقت بسبب تفرق المسلمين وتشتيت قواهم .

وتوالت انتصارات زنكى فى الشام فاستولى على حماة ، ثم عاد إلى الموصل ليريح جيشه ويجدد قواه ، ولم يلبث أن عاد إلى الشام فعبر الفرات واسترد قلعة بصرين من الفرنجة ؛ ثم رأى أن يضم إلى ملكه بعض المدن الكبرى لتكون نواة للدولة الجديدة تأهباً للنضال ضد القوى الصليبية فملك حمص وبعلبك وحاصر دمشق ثم عاد إلى الجزيرة فاستولى على ديار بكر ومن هناك توج عماد الدين أعماله العظيمة باقتحام امارة الرها الصليبية ، فكانت أول ثغرة نفذ منها المسلمون إلى غيرها من القلاع

والمدن الصليبية بالشام ، واعتبر سقوطها بأيدى المسلمين أول صدع كبير فى البناء الصليبى الذى أقامه الغزاة فى الشرق الإسلامى ، وأول ضربة جزئية ضدالصليبيين فقد كان لقيام هذه الأمارة الصليبية فى بلاد الشام الأثر الكبير فى العالم الإسلامى ، نظراً لخطورة موقعها وأثرها المباشر على خطوط المواصلات الإسلامة بين الموصل وحلب ، وبين بغداد والامارات الإسلامية فى الأناضول فضلا عن أنها كانت قاعدة انطلاق للغارات الصليبية على سائر بلاد الجزيرة ، فهى على حد تعبير الاستاذ فيليب متى ، كانت الشام والعراق ، وبسقوطها أصبح الاتصال مأمونا بين الموصل وحلب .

ولم يحقق عماد الدين زنكى بقية أحلامه لاستئصال شأفة الامارات الصليبية فى انطاكية وطرابلس وبيت المقدس .. فقد كانت يد الغدر له بالمرصاد واغتاله نفر من مماليكه بينما كان قائماً فى خيمته وهو يحاصر قلعة «جعبر» وانتهت باستشهاده أول حلقةمن حلقات المواجهة الحربية بين المسلمين والصليبيين ، وأسدل الستار مؤقتاً — على عصر جديد كان النصر فيه حليفاً للمسلمين ولم يكن غريباً أن صاح أهل القلعة فى وجه قاتله : « لقد قتلت المسلمين كلهم بقتله » .

* * *

.. بقيت كلمة لابد منها ...

إن نظرتنا إلى البطل ينبغي أن تكون فى أطار الواقع التاريخى الذى عاش فيه وحكمنا عليه ينبغى أن يكون من منظور الظروف النفسية والبيئية التى أحاطت به .. فالبطل ليس قديساً ولا ملاكاً .. كذلك فهو ليس زعيماً دينياً ولانتوقع صدور الخطأ منه .. فهو .

أولا : بشر يخطئ ويصيب وهو .

ثانياً : يتصرف بالطريقة التى يراها مناسبة لتحقيق أهدافه العليا حتى لو كان فى بعض هذه التصرفات مايدخل تحت طائلة المساءلة الأخلاقية والمثالية .

ولذلك لاندهش إذا أثنى المؤرخون المشارقة أعظم الثناء على ما تحلى به زنكى من مواهب سياسية . ولكن هذا الثناء لم يمعهم من أن يصفوه بأنه «كان رجلا لاوازع له من ضمير» كما تذكر دائرة المعارف الإسلامية .

فلو اتفقنا على المنهج «الرمادى» فى تقييم الزعماء .. وهو المنهج الذى يتجاوز حصرهم بين أبيض وأسود .. فسوف نستطيع فهم الظروف التى أملت عليهم اتخاذ قرارات تتنافى مع القواعد الأخلاقية والمثالية .

لغز اختفـــاء
الحـاكم بأمر الله

«خرج ولم يعد» .

خبر من ثلاث كلمات تردد على ألسنة أهل القاهرة منذ ألف عام ، عندما خرج الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله وحيداً فى ليلة الإثنين ٢٧ من شوال سنة ٤١١ هجرية إلى إحدى جولاته الليلية فى تلال المقطم . حيث أقام مرصداً للنجوم ، ولكن الخليفة لم يعد منذ تلك الليلة ، ولم تظهر له جثة ، فجاء اختفاؤه فى تلك الظروف المريبة ، وانعدام كل أثر يدل عليه ، مدعاة لنسج الأساطير من حوله ميتاً ، كما نسجت الأساطير من حوله وهو على قيد الحياة .

ولقد ذكر الرواة أقوالا كثيرة عن لغز اختفاء الحاكم بأمر الله ، فمن قائل بأن اللصوص خرجوا عليه من إحدى مغارات المقطم ليسرقوه وهم لايعرفون شخصيته فلما عرفوه تملكهم الفزع ودفنوه فى حفرة مجهولة ، ومن قائل أن أخته (ست الملك) دبرت مؤامرة اغتياله لتهدئ من ثورة الجماهير التى إنتفضت احتجاجاً على تجروءه بادعاءه الألوهية ، ثم سارعت بقتل الذين قتلوه ليبقى سر اختفاله مجهولا ، أما الغلاة من أتباعه فقالوا

إنه رفع إلى السماء كما رفع المسيح عليه السلام وأنه سيعود ليملأ الأرض عدلا ، وعارضهم آخرون فقالوا إنها نوع من الغيبة الجسدية « أرادها هو نفسه أن تكون معجزة أو لغزاً عويصاً سيظل موضع نقاش وجدل ، كما كانت شخصية صاحبه إلى الأبد » .

هذا هو الحاكم بأمر الله .. الشاب المغامر الجسور ، الذى جمع فى شخصيته مزيجاً من الأهواء والنزعات المتناقضة ، ولعل التاريخ الإسلامى لم يعرف شخصية أحاط بها الغموض — فى الحياة والممات — كتلك الشخصية العجيبة .

* فهو العالم البحاثة الذى يقدر العلم والعلماء .. فيبنى دار الحكمة لتكون صرحاً للعلوم والأسرار الدينية ، ويستقدم الحسن بن الهيثم ليبنى له سداً على النيل فى أسوان .

* وهو السفاح المولع بسفك الدماء .. حتى أن أقرب أعوانه كانوا لا يأمنون أن تطيح رؤوسهم بإشارة من بنانه ..

* وهو الدجال الذى يطلق الجواسيس لجمع أسرار البيوت .. ثم يوهم الناس بأنه يعرف ما يسرون وما يدخرون فى بيوتهم .

* وهو المعتوه الذى يحرم أكل الملوخية .. ويغلق الدكاكين نهاراً ويفتحها ليلا .

* وهو الحريص الغيور على تقاليد الشرع .. فيغلق الحانات ويمنع النساء من الخروج إلى الأسواق .

* وهو الزاهد المتقشف .. الذى لم يكن يلبس إلا الخشن من الثياب الصوفية ، ولا يأكل إلا النزر اليسير من الطعام .

عقيدة التوحيد عند المصريين

ولقد تحمل المصريون كل هذه التصرفات الشاذة من الحاكم بأمر الله ، وصبروا عليها عملا بطريقتهم القديمة فى الصبر على السلطان الجائر حتى تتدخل الاقدار فتريحهم منه ، أما الذى لم يصبر المصريون عليه أبدا فهو العبث بمعتقداتهم الدينية ، أو المساس بعقيدة التوحيد الراسخة فى وجدانهم ، حينئذ يتجلى المصريون عن صبرهم التاريخى ، ويكون لهم مع الحاكم شأن آخر ..

وهذا ما فعلوه مع الحاكم بأمر الله حين شط به خياله لابتداع دين جديد ، وزين له أتباعه أن الله تجسد فى صورته ، فما أن تسربت هذه الأفكار الإلحادية إلى

الشارع المصرى حتى انقض على أصحاب « الدعوة الجديدة » ذبحاً وتقتيلا ، وثارت الجموع تحيط بهؤلاء الملاحدة فى أوكارهم ، واختل الأمن وشاعت الاضطرابات وتعرض العرش الفاطمى كله للسقوط ، حينئذ كان لابد أن يختفى الحاكم بأمر الله لتبقى دولة الفاطميين ، وهذا هو الدور الحاسم الذى قامت به (ست الملك) للإطاحة بالحاكم وتولية إبنه (الظاهر) حفاظاً على مصير الدولة الفاطمية من الانهيار .

والحديث عن التصرفات الشاذة للخليفة الحاكم بأمر الله لايدخل فى إطار هذه الدراسة ، وقد فاضت بها كتب التاريخ ، ولاتزال موضع سخرية المصريين ، وإنما الذى يعنينا هو رد الفعل العنيف الذى اجتاح الجماهير المصرية حين ذاعت فكرة تاليه الحاكم بأمر الله ، وخرجت من نطاق السرية المطلقة إلى الشيوع ، وتلك حلقة من حلقات التاريخ المصرى لم تأخذ نصيبها من الوضوح ، وترجع أهميتها إلى أنها تلقى الضوء على طبيعة هذا الشعب الذى رفض التطرى ، ويأبى المغالاة ، وينفر من الإلحاد ويستمسك بكل ما هو معتدل فى أمور الدين والعقيدة .

كيف ظهرت
دعوة تأليه الحاكم ؟

فكيف غابت هذه الحقيقة عن ذهن الحاكم بأمر الله ، وهو الذى اشتهر بالذكاء واللماحية ؟ ومن الذى أوحى إليه بتلك الأفكار الشاذة حتى اقتنع بها وأشار باذاعتها على الناس ؟ .

وإذا صح القول بأن الإنسان ابن عصره ، ونتاج الظروف العقلية والإجتماعية والسياسية التى تسود بيئته .. فانه يكون من غير المقبول الزعم بأن فكرة تأليه الحاكم نشأت من فراغ ، أو أنها كانت نزوة شيطانية طرأت على عقل صاحبها .. وإنما الصحيح أنها وجدت المناخ المناسب لكى تنبت وتتطور وتجد من يصوغها فى قالب دينى يتقبلها الناس ، كأنها جزء من العقيدة الدينية .

فماذا كانت طبيعة العصر الذى عاش فيه الحاكم بأمر الله ، وهو مطلع القرن الخامس الهجرى ؟ يصف المؤرخ محمد عبد الله عنان هذا العصر بأنه كان عصر الخلفاء فى مصر الإسلامية ، عصر النزوع إلى استكشاف الغيب وإحياء الخوارق ، وقيام الفرق الدينية السرية وبث الدعوات الإلحادية المغرقة ، وهو يصف الدولة

الفاطمية بأنها كانت تمثل هذا الاتجاه المغرق فى الخفاء أصدق تمثيل ، فقد نشأت تلك الدولة فى ظروف غامضة يكتنفها كثير من الخفاء والريب ، وقدم الفاطميون إلى مصر تحيط بهم وبنسبهم وغاياتهم ظلمات يصعب استجلاؤها ، وهو يرى أن هذا الخفاء كان من أسباب قوة الدولة الفاطمية.واتسامها فى نظر العامة بسمة المقدرة الخارقة ، ولذلك حرص الخلفاء الفاطميون على الاتشاح بهذه الحجب القاتمة التى لا تكشف عما وراءها من المقاصد والغايات ، وكان هذا التعلق بالخفاء يتخذ فى أوائل الدولة الفاطمية صورة رسمية ، فنجد الخلفاء يدعون معرفة الغيب.ويظهرون بمظهر القدسية والارتفاع إلى مافوق مستوى البشر ، وكان معظمهم يشغف برصد النجوم واستقراء ما وراءها من الأحداث ، حتى أن المعز لدين الله وجد أن طالعه يقتضى اختفاءه عن وجه الأرض حولا كاملا . فنزل على إشارة النجوم . . فاستخلف ولده العزيز على العرش ، ثم اختفى تحت الأرض فى سرداب سنة كاملة ، ثم خرج بعد اختفائه وقد أحاط به سياج من الرهبة والخشوع .

وبرغم نزوع هؤلاء الخلفاء الأوائل إلى الخوارق وادعائهم معرفة الغيب ، فان أيا من — المعز والعزيز لم يجروء على إدعاء الألوهية ، بل بعض الروايات التاريخية تذكر لنا أن المعز لدين الله لم يستطع كبح غضبه على بعض دعاة المذهب الإسماعيلى الذين قدموا عليه من فارس ، واكتشف أنهم «غالوا فى الأئمة فاستغضم المعز أن يقول اتباعه بهذه المقاله الشنيعة واستنكرها

سـلاح النكتـة المصرية

فى مواجهـة الفاطميين

أما المصريون فقد كان موقفهم فى هذه المرحلة المبكرة التى اقتصرت على ادعاء الغيب هو موقف السخرية والتندر ، حتى أن الخليفة العزيز ، والد الحاكم بأمرالله صعد المنبر يوم جمعة ليخطب الناس فوجد على المنبر رقعة مكتوب فيها :

بالظلم قد رضينا

وليس بالكفر والحماقة

إن كنت أعطيت علم غيب

فقل لنا كاتب البطاقة

وكان لهذه السخرية المصرية فعلها فى نفس العزيز ، فلم يجرؤ على التمادى فى زعمه معرفة الغيب ، وفى ذلك يقول الدكتور محمد كامل حسين : إن رجوع العزيز عن ادعاء الغيب إنما يرجع إلى شخصية المصريين ، فلولا كثرة فكاهاتهم وتندرهم بالأئمة الإسماعيلية فى هذه المقالة مارجع العزيز عنها ونفاها عن الأئمة ، فالنكت المصرية اللاذعة أقول أنها سلاح من أسلحة مقاومتهم ، كانت من العوامل الفعالة فى تغيير العقيدة الإسماعيلية وتطورها فى مصر بحيث أصبحت عقائد الإسماعيلية فى الدور الفاطمى المصرى تختلف اختلافاً ملحوظاً عن عقائد الإسماعيلية فى اليمن أو فى فارس فى نفس العصر .

ريح الإلحــــاد
تهب على مصـــــر

ويبدو أن سلاح النكتة المصرية كان مناسباً لهذا الطور من أطوار الدعوة الفاطمية الذى حرص على إخفاء معتقداته الحقيقية عن عامة الناس ، ولكن النكتة المصرية لم تعد هى السلاح الفعال لصد ريح الإلحاد الصريح التى هبت على مصر منذ مطلع عهد الحاكم بأمر الله ، وبات لزاماً على الموقف المصرى أن يتطور تطوراً طردياً

مع بشاعة الدعوة التى نادى بها دعاة مغامرون وفدوا على مصر يبشرون بدين جديد ، ويدعون إلى ألوهية إمامهم الحاكم بأمر الله ، وإلى التناسخ والحلول ، ويستترون بالرموز والمعانى الباطنية التى برع فيها الفكر الإسماعيلى ووجد هؤلاء الدعاة فى شخصية الحاكم مطية صالحة لتنفيذ مآربهم ، ووجد هو فيهم أداة قوية لتحقيق طموحاته ، والخروج بهذه الأفكار إلى ساحة الجماهير بعد أن بقيت طى الكتمان طوال العصور السابقة ، وكان الحاكم يأمل أن تلقى دعوته القبول من الناس بعد أن مهد لها بكل وسائل الدعاية والإغراء والترضية .. ولكن وقع ما لم يكن فى الحسبان ..

تاريخ الطائفـــة الإسماعيلية

وما دمنا بصدد الحديث عن هذا الدين الجديد ، فلا مفر من التنويه بتاريخ الطائفة الإسماعيلية التى ينتسب إليها الفاطميون ، والتى قامت بدور خطير فى الحياة السياسية والإجتماعية والثقافية فى بقاع كثيرة من العالم الإسلامى . ولا تزال بقايا الإسماعيلية تمارس نشاطها فى عصرنا الحالى ممثلة فى طائفة «البهرة» .. وطائفة «الأغاخانية» التى يتزعمها أغاخان المشهور .

ونحن نعلم أن شجرة الشيعة . التى تجعل من الإمام على بن أبى طالب رأساً لها ، قد انقسمت بعد الإمام السادس من أئمة الشيعة ، وهو جعفر الصادق ، إلى فرقتين كبيرتين تنتسب كل منهما إلى أحد بنى الإمام الصادق ، فالشيعة الإمامية تعترف بامامه موسى الكاظم الذى تسلسلت الإمامة فى أعقابه حتى الإمام الثانى عشر هو (المهدى) الذى دخل السرداب فى سامراء سنة ٢٦٠ وينتظرون خروجه ليملأ الأرض عدلا بعد أن ملئت جوراً .

أما الفرقة الثانية فتمسكت بامامة إسماعيل ابن الصادق الذى قيل أنه مات فى حياة أبيه ، ولكن الإسماعيلية لاتعترف بهذا القول ومضت فى طريقها بعيداً عن الفرقة الأخرى ، ثم دخلت دور الستر والكتمان لمدة قرن كامل حتى ظهرت فى المغرب فى شكل الدولة الفاطمية التى مالبثت أن استولت على مصر واتخذت منها قاعدة لبسط نفوذها على الشام واليمن وفارس فضلا عن شمال أفريقيا وصقلية وجنوب إيطالياً ، واتجهت بأنظارها إلى عاصمة الخلافة العباسية فى بغداد بهدف الإطاحة بها وكادت تنجح فى مسعاها لولا المتغيرات الدولية التى نجمت عن نشوب الحروب الصليبية .

التنظيمات السرية

وقد اعتمدت الإسماعيلية فى نشاطها على التنظيمات السرية التى بلغت حداً فائقاً فى دقة التنظيم والكتمان حتى تمكنوا من القيام بالعديد من الانقلابات فى بقاع شتى من العالم الإسلامى . أما سلاحهم الثانى فى بث أفكارهم فهو سلاح الدعاية وكانوا يعتبرونه أقوى أثراً من الحملات الحربية ، ومضى دعاتهم يبشرون بفضائل الأئمة وقرب الخلاص من ظلم الحاكمين ، ويعدون الناس بعدالة إجتماعية فى ظل حاكم إمام من نسل رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان هؤلاء الدعاة يخضعون لتربية وتدريب على الجدل يؤهلهم للمهمة الشاقة التى سيضطلعون بها .

وفى ذلك يقول الدكتور محمد كامل حسين « الحق أقول إنى لم أجد فى تاريخ العصور الوسطى فى دولة من الدول أو طائفة من الطوائف اهتماماً خاصاً بالدعاية وتنظيمها على النحو الذى وجدته عند طائفة الإسماعيلية فلا غرو أن أزعم أنهم أساتذة فن الدعاية فى العالم ؛ حتى جعلوا الدعاية من صميم عقيدتهم وفلسفتهم ؛ وقد لمست من بعض مقابلاتى مع بعض المستشرقين الامريكين أنهم يريدون معرفة أسرار نظم الدعوة الإسماعيلية ، ونحن

نعرف أن الأمريكين يجيدون فن الدعاية ويتخذون لها وسائل مختلفة . غير أنهم لم يبلغوا بعد ، ما بلغته دعاية الطائفة الإسماعيلية بالرغم من أدوات الدعاية الأمريكية والمخترعات الحديثة والدولارات الأمريكية .. وعمل الإسماعيلية إلى جعل الدعاة من حدود الدين وذلك إمعاناً منهم فى إسباغ الفضائل على هؤلاء الدعاة الذين يبشرون بالأئمة وبعقيدتهم المذهبية حتى يستطيع الداعى أن يوجه اتباع المذهب كيفما شاء ، وأن يكون كلامه لهم من صميم المذهب ، فلا يحاجه أحد ولا يخالفه إلا كل مارق عن المذهب . وذهب الأئمة إلى أبعد من ذلك حيث أنى لا أغالى إن قلت إن حضارة الفاطميين فى مصر كان أساسها الدعاية قبل كل شىء . فهم لم يشجعوا الشعراء والأدباء إلا ليكونوا ألسنة لهم ، وهم لم يسرفوا فى إقامة الحفلات والأعياد وأما تبع من إقامة الموائد للشعب فى كل مناسبة إلا من قبيل الدعاية .

مضمون العقائد الإسماعيلية

وإذا كان هذا شأن التنظيمات الإسماعيلية وأجهزتها الدعائية ، فما هو مضمون العقائد الإسماعيلية وما هو موقعها من عقيدة التوحيد التى عليها جمهور المسلمين ،

وكيف تطور الفكر الإسماعيلى ليصبح ديناً جديداً على أيدى الزمرة المغامرة من الدعاة الفرس الذين كانوا يترددون على دار الحكمة بالقاهرة ويدرسون فيها أصول المذهب الإسماعيلى قبل أن يخرجوا على الناس بمقالتهم الشنيعة .

إن المصادر التى تضم أصول المذهب الإسماعيلى أكثر من أن تحصى ، ولكن معظمها لايزال فى شكل مخطوطات سرية يحتفظ بها زعماء الطائفة فى الهند واليمن وسوريا ، ولكن الدراسات الحديثة استطاعت أن تقف على مضمون هذه الكتب وتخرج به إلى النور مما أتاح فرصة كبيرة للوقوف على أصول العقيدة فى مظانها الأصلية ، وكان للدكتور محمد كامل حسين فضل الحصول على بعض هذه المخطوطات ونشرها بعد تحقيقها ، وكان له كذلك فضل السبق فى إلقاء الضوء على هذه الطائفة العريقة من خلال كتابه (الطائفة الإسماعلية ونظمها وعقائدها) وهو يعتبر المرجع الدقيق لأى باحث فى تاريخ الإسماعيلية ، وفى نفس الوقت ظهر باحثون إسماعيليون اجتهدوا فى عرض فكرهم على الناس بعد أن عاشوا قروناً على الكتمان ،

ومن هؤلاء الدكتور مصطفى غالب ، وهو باحث سورى ينتمى إلى بلدة سلمية مركز الطائفة الإسماعيلية فى سوريا ، وسوف نعتمد فى عرض أصول العقيدة الإسماعيلية على كتاب الدكتور مصطفى غالب الذى يحمل عنوان : الحركات الباطنية فى الإسلام .

الظاهر والباطن
أساس العقيدة الإسماعيلية

يعتقد الإسماعيلية أن لكل شىء ظاهرا وباطنا ، وطبقوا هذا المبدأ على كل أمر من أمور الدين ، فالقرآن الكريم له تفسير ظاهرى يعرفه عامة الناس عامة ، والرسول ﷺ هو المختص بهذا التفسير الظاهر ، أما تأويل المعنى الباطن للقرآن فهو من اختصاص (**الإمام**) الذى أوتى من علوم الأسرار ما يخوله فهم الرموز والإشارات التى يستعصى فهمها على العامة ، والنبى ﷺ — حسب المذهب الإسماعيلى — يمثل الشريعة والأحكام والفقه والقانون الظاهر ، أما (**الإمام**) فتتجسد فيه الحقيقة والتأويل والفلسفة الباطنية ، ولكل فريضة من فرائض الدين تأويل باطنى لا يعلمه إلا الأئمة وكبار دعاتهم ، وعمدوا إلى إحاطة جميع العلوم الباطنية بالسر والكتمان ، وحظروا

إظهارها إلا لمن يستحق ذلك من أتباع الدعوة المخلصين الذين تدرجوا فى مناصبها وهم الطبقة المعروفة بالخاصة .

وعمد الإسماعيلية إلى المقابلة بين العالم العلوى والعالم السفلى ، فكل موجود فى العالم الأرضى يماثل موجوداً فى العالم الروحانى الباطنى ، فالإمام على الأرض يقابل الذات الإلهية فى العالم العلوى ، وفى ذلك يقول أحد دعاتهم : « ان مولانا جل ذكره وعز إسمه ، وجل سلطانه الحاكم الأوحد ، الفرد الصمد الذى لم يتخذ فى حقيقة لاهوته أحبة ولا ولدا ، ومولانا سبحانه معلل علة العلل جل ذكره وعز إسمه ولا معبود سواه ، ليس له شبه فى الجسمانيين ، ولا ضد فى الجرمانيين ، ولا كفوء فى الروحانيين ، ولا نظير فى النفسانين ، ولا مقام فى النورانيين ، لأن الحاجب هو المحجوب ، والمحجوب هو الحاجب ، ذلك هو لافرق بينهما .

مؤسس الدعوة
إلى تأليه الحاكم

ولعلك لاحظت فى العبارة الأخيرة مزجاً قوياً بين الذات الإلهية ، وذات الإمام (لافرق بينهما) ولكن ستزول دهشتك إذا عرفت أن صاحب هذه العبارة هو

مؤسس الدعوة إلى تاليه الحاكم واسمه حمزة بن على ، وهو داعية إسماعيلى من الفرس الذين جاءوا إلى مصر فى عصر الحاكم بأمر الله ، وهو أول من فكر فى تأليه الحاكم بعد أن انتظم فى سلك الدعاة الذين كانوا يختلفون إلى دار الحكمة لحضور الندوات الفلسفية السرية ، وما لبث هذا الرجل أن ارتقى من سالك الدعاة الذين لايفارقون الحاكم بأمر الله ، وأصبح واحداً من أربعة دعاة كبار يسمون

الأربعة الحرم الذين يكونون فى معية الإمام ولا يفارقون مقر قيادته أبدا .

يقول مصطفى غالب : « واستطاع حمزة بن على بما أوتيه من حكمة ودراية ومقدرة ودهاء وخيال خصب أن يجمع حوله بعض الدعاة ، ويتفقوا سراً للدعوة إلى تأليه الحاكم معتمداً فى دعوته هذه على أصول وأحكام جديدة استنبطها من صميم الأصول والأحكام الإسماعيلية واتفق حمزة بن علي مع بعض دعاته على ألا يجهر أحدهم أو يكشف عن مضمون المذهب الجديد إلا بعد تلقى الأوامر من حمزة نفسه . ولكن الداعى الفارسى محمد بن إسماعيل (الدرزى) تسرع بالكشف عن أسرار

الدعوة الجديدة لأنه كان يرنو إلى منصب الإمامة الذى أطلقه حمزة على نفسه » .

ونفهم من سير الحوادث أن بعض هؤلاء الدعاة كان يتخوف من الجهر بالدعوة ظناً منه أن الحاكم لن يوافق عليها ، وكانت المفاجأة حين أبلغهم حمزة بن على أن الإمام الحاكم هو الذى أوعز إليه بأن ينادى بتأليهه وتقديسه على الصورة التى بشر بها حمزة وأعوانه ، وبذلك نجح حمزة فى إزالة مخاوف الدعاة ، وبدأ فى تنظيم دعوته الجديدة ووضع لها المراتب والحدود ، وأمر الدعاة بالستر والتقية وعدم البوح بشىء مما يضمرون ولكن الدرزى — لأسبب انتهازية — لم يكتم السر وتصور النزاع بين أنصار حمزة والدرزى ، وبات كل منهم يلعن الآخر ويكفره ، ويسعى إلى كسب المؤيدين ، ورأى الدرزى أن يمضى فى طريق الجهر بالدعوة قبل الأوان .

ثورة القاهرة
ضد دعاة التأليه

وجاء ذيوع خبر تأليه الحاكم بمثابة الصدمة التى هزت مشاعر الناس فى القاهرة ، ولم يصدقوا فى مبدأ الأمر أن تكون هذه الدعوة الإلحادية برضاء الحاكم ، وظنوا أنها من

مبتكرات الدعاة الفرس، ولكن ظنونهم خابت حين علموا أن خطة تأليه الحاكم تمت فى دهاليز القصر الفاطمى ، حينئذ ثارت ثائرتهم ، وأخذوا يتعقبون دعاة التألية يطاردونهم فى كل مكان يظهرون فيه، وينهالون عليهم ضرباً وتقتيلا وبينما كان الدرزى فى طريقه إلى قصر الحاكم ومعه ٥٠٠ من إتباعه، انقض عليهم الناس فقتلوا منهم نحو أربعين وهرب الباقون . وعلى أثر ذلك ثارت الاضطرابات فى أنحاء القاهرة وأغلقت الحوانيت، واستمرت الفتنة ثلاثة أيام قتل خلالها جمع كبير من أنصار الدورى ،وقد اختلفت الروايات بشأن مصير الدرزى نفسه ،فقال بعض المؤرخين أنه قتل فى هذه المذبحة ، وقال أخرون أن أحد الجند وثب عليه وهو فى موكب الحاكم فقتله، بينما تذكر المصادر الإسماعيلية أن الدرزى استطاع الإفلات من قبضة الجماهير الثائرة ، فهرب إلى وادى التيم فى لبنان ، وظل يبشر أهل الجبل بمذهبه الجديد،وكان هذا إيذانا بنشوء طائفة الدروز ، ويقال إن الحاكم هو الذى أمره بالرحيل إلى هذه المنطقة الجبلية النائية وزوده بالمال اللازم لنشر مذهبه .

الجمــــاهير تتعقب حمـــزة بن على

وبعد اختفاء الدرزى خلا المسرح لخصمه اللدود حمزة ابن على، الذى اتخذ من مسجد(تبر) بالمطرية مقراً سرياً للاجتماع بأعوانه وبث دعوته الإلحادية ولم يكن اختيار هذا المسجد اعتباطا . فقد كانت المطرية فى ذلك الوقت من المناطق المهجورة والبعيدة عن ثورة الجماهير فى القاهرة. ولكن أهل القاهرة تعقبوه حتى عرفوا مكمنه الجديد فهاجموه وأحرقوا باب المسجد ولكنه احتمى وراء باب من الحجر، والقصة يرويها حمزة بن على نفسه . وستلاحظ أنه أضفى عليها مسحة من الخوارق والمعجزات الباطنية فيقول : « إن الباب الحجرى القوى هو خوخة ضيقة لايستطيع أحد أن يدخلها إلا إن كان من أصحابها وأربابها» وهو يذكر هذا الحادث بالتفصيل فيقول :

« وقد اجتمعت عند المسجد سائر اخترالك بالجواشن والزرد والخوذ والتجافيف ، ومن جميع العساكر والرعية زايد عن عشرين ألف رجل ، وقد نصبوا على القتال بالنفط والنار ، ورماة النشاب والحجارة ، ونقب الجدار والتسلق إلى الحيطان يوم كامل ، وجميع من كان معى فى ذلك اليوم أثنا عشر نفساً .منهم خمسة

شيوخ كبار وصبيان صغار لم يقاتلوا ، فقتلنا من المشركين – يقصد المهاجمين المسلمين – ثلاثة أنفس وجرحنا منهم خلقاً عظيماً لا يحصى ، حتى طال على الفئة القليلة الموحدة يقصد أتباعه القتال ، وكادت الأرواح تتلاشى وتبلغ التراقى » ..

ختـــام القصـــة

اختفـــاء الحـــاكم

ماذا تستنتج من هذه القصة برغم ماتتضمنه من مبالغات أسطورية ..؟ إنها تؤكد المعنى الذى سبق أن ذكرناه وهو أن الجماهير إذا كانت قد صبرت على شذوذ الحاكم بأمر الله واستبداده ، فإنها لم تصبر على اختلاله العقلى حين ادعى الألوهية .. وزعم أن الذات الإلهية قد تجسدت فيه وجاء اختفاء الحاكم بأمر الله ليضع الخاتمة المأساوية لهذا الشاب المغرور الذى لم يتعظ من درس فرعون حين قال (أنا ربكم الأعلى) .. وكانت نهاية كل منهما متشابهة.. ذاك ابتلعه اليم فكان من المغرقين .. وهذا التقمه المقطم فكان من الغابرين .

الإمام أحمـــــد

فى براثن المعتصـــم

سنبقى محنة الإمام الجليل أحمد بن حنبل مثلا عالياً فى البطولة والتضحية ، ورمزاً للصلابة فى مواجهة الشدة ، ونوراً يهدى أصحاب الرأى الحر والعقائد السليمة ويدفعهم إلى التمسك بالحق مهما لاقوا من العنت والاضطهاد ، لاتلين لهم قناة إذا أدبرت الدنيا وكشرت عن أنيابها الكالحات ، ولا تهتز لهم خاطرة إذا هى أقبلت بنعيمها وترفها . فهم على الحالين صابرون .. صامدون .

لم تكن محنة الامام على أيدى الكفار أو المشركين كما كان حال المجاهدين الأوائل فى العهد النبوى ، ولكنها — للأسف — كانت بفعل مسلمين ينطقون الشهادتين . فقدتصوروا أنهم وحدهم على الحق وغيرهم على الباطل ، فجعلوا من أنفسهم خصوماً وقضاة . وحكموا على معارضيهم بالكفر والالحاد .

تلك مفارقة أولى تستحق التسجيل .. أما المفارقة الثانية فهى أن خصوم الإمام كانوا أول من رفع شعار حرية الرأى والاعتقاد فى تاريخ الفكر الإسلامى ، وأول من دعا إلى

حرية الإرادة .. ولكن ما أن لاح لهم بارق السلطة حتى تنكروا لمبدئهم ، وكانوا أول هادم للشعار الذى دعوا إليه.

لقد ظهر الإمام فى عصر الترف العقلى الذى ساد دولة العباسيين وبلغ أوجه على عهد المأمون، ولا أدرى إن كان من حسن الحظ أو من سيئاته ، أن كان المأمون من طليعة الخلفاء المثقفين الذين شغلوا أنفسهم بقضايا العلم والأدب والفلسفة . ويخيل إلى أن ثقافة المأمون كانت نعمة من وجه ونقمه من وجه آخر .

فلا أحد ينكر فضل المأمون على الحركة العقلية بما نقله إلى العربية من تراث الحضارات السالفة ، ومن تبنيه لأكبر عملية ترجمة فى تاريخ الثقافة العربية ، ورعايته للعلماء وتشجيعه للمفكرين .

ولكن المأمون لم يقنع بدور الراعى لهذه الحركة العظيمة وإنما حسب نفسه فى عداد المفكرين فشغل نفسه بما كان يشغل علماء عصره من خلافات مذهبية وعقائدية ، وانغمس فى لجة الفلسفة التى غمرت الحياة الفكرية . وكأنما أراد أن يجمع فى يده قيادة الدولة وريادة العلم معا ، ولقد كان يمكن تقبل هذه الحماسة العلمية من جانب المأمون ، لو أنه نأى نفسه عن الانحياز إلى حزب معين من الأحزاب الفلسفية

التى كانت تتصارع وتثرى حركة الفكر عن طريق الحوار والجدل والمناظرة إلا أن المأمون استغل سلطانه المطلق لتسود أفكار فلسفية بعينها على غيرها من التيارات المعارضة حتى أوشك مذهب المعتزلة الذى اعتنقه وأعجب به.. أن يصبح المذهب الرسمى للدولة، ولم يتورع المأمون عن استخدم العنف لفرض هذا المذهب على الجميع وحمل المعارضين على الأخذ به ؟ .

كان الجيل الثانى من مفكرى المعتزلة قد بلغوا درجة النضج العقلى مع مطلع القرن الثالث الهجرى واستقر مذهبهم فى قوالب محددة المعالم وانتهت زعامتهم إلى القاضى أحمد بن أبى دواد الذى لعب الدور الأكبر فى تدبير محنة الإمام أحمد ، والذى تمكن بسعة علمه وذلاقة لسانه من التقرب إلى المأمون فأصبح جليسه الذى لا يفارقه، واستغل فى المأمون تعطشه إلى العلم والمعرفة فسقاه من منهل الاعتزال حتى أضحى المأمون من أكبر المتشيعين لهذا المذهب، وأصبح ابن أبى دؤاد المفكر الرسمى لدولة المأمون يدبر المؤامرات ضد خصومه ويطلق يد أعوانه فى شئون القضاء والولاية، ثم خطا خطوة وبيله بإقدامه على حمل العامة على اعتناق مذهبه ، وأثاره صدود العامة عن أفكار المعتزلة ولجوءهم

إلى علماء الحديث بزعامة أحمد بن حنبل ، لما لمسوه فيهم من صدق الحجة ، وسلامة العقيدة ، وبراءة الفكر الدينى من شوائب الأفكار المستحدثة .

وارتكب المعتزلة غلطة العمر عندما ظنوا أن أفكارهم يمكن أن تسود عن طريق القهر والعسف والترهيب ، وإذا كانت جريمة الارهاب الفكرى تحسب بمثلها فى موازين العقاب .. إلا أنها تحسب بعشر أمثالها عند محاسبة المعتزلة ، فقد كانت حرية الفكر ركنا أساسياً فى مذهبهم ، وكانوا يرفعون شعار حرية الإرادة الانسانية فى القول والفعل والجزاء ، وما حسبوا أنهم بفعلتهم الشنعاء قدموا المثل لمن لحق بهم ليسقيهم من نفس الكأس التى جرعوها لخصومهم ولو بعد حين .

وفى آخر سنوات عمر المأمون بدأت المحنة ...

* * *

كان المأمون فى طرسوس ، على الحدود بين العراق وتركيا ، يقاتل الروم . ولكن جهاده فى سبيل الله لم يمنعه من الحرب فى ميدان الفكر والعقيدة ، وما أبعد الشقة بين الحربين ، فقد كانت الأولى ضد أعداء الإسلام ، أما الثانية ، فكانت ضد العلماء والفقهاء العظام الذين رفضوا

مقولة المعتزلة حول مسألة خلق القرآن ، فجعل المأمون من هذه المسألة الفلسفية المستحدثة قضية الساعة.. تعقد من أجلها الامتحانات لهولاء العلماء الأجلاء ، فمن رضخ منهم واعترف بصحة قول المعتزلة نجا . ومن رفض «فاضرب عنقه وابعث إلى أمير المؤمنين برأسه » .

هكذا كانت تعليمات المأمون إلى حاكم بغداد اسحاق بن ابرهيم . فلم ينتظر المأمون حتى يعود إلى عاصمة ملكه ليتولى الأمر بنفسه ،وانما تعجل بتحريض من أبى داود ، فبعث إلى اسحاق يأمره باستدعاء علماء الحديث وأخذ أقوالهم فى هذه القضية التى لاتقدم ولاتوخر فى شئون الدين أو الدنيا .. ولكنه العنت الفكرى الذى تمكن من المأمون ومن يقرأ رسالة المأمون يشعر للوهلة الأولى أن كاتبها هو أبو دواد ، فهى إلى جانب صياغتها الفلسفية مفعمه بالتحامل على العلماء ، وتحقيرهم وتهديدهم إذا لم يذعنوا لقولة المعتزلة .

* * *

وبدأت حلقات المهزلة المبكيه تتداعى وأخذ ممثل السلطة يستدعى العلماء ويمتحنهم فى عقائدهم ، فكان منهم من استسلم ، ربما ضعفاً وربما رهبا .. وربما اتقاء لشر يمكن الاستغناء عنه ..

إلا أحمد بن حنبل ..

لقد أفزعه ان تتهاوى قلاع العلماء واحدة بعد أخرى.:
وهم حصن الشريعة، وموطن الثقة والرجاء عند جمهور المسلمين ، وبانهيارهم ينفلت زمام العقيدة السمحاء عقيدة الإسلام فى بساطتها ونقائها وارتكازها على الكتاب والسنة

وعندما جاء الدور على الإمام فى الامتحان، أجاب بما تمليه عليه نظرته النقية الخالية من شطط الفلسفة وعلم الكلام وأعد حاكم بغداد تقريراً إلى المأمون ضمنه إجابات العلماء ولم يكد يطلع المأمون عليها حتى ثارت ثائرته ، وعزم على استخدام السيف فى رقاب الصامدين ، وبعث إلى اسحاق ويرد عليهم ويتهمهم بالشرك المحض. ويأمر ممثله باعادة امتحانهم (فمن تاب منهم فأشهر أمره ، وأمسك عنه ، وإن أصر على شركه ودفع بكفره والحاده، فاضرب عنقه وابعث إلى أمير المؤمنين برأسه) . أما عن الامام فقد تجرأ المأمون عليه ، واتهمه بالجهل ، وساءه أن يقف واحد من الرعية — حتى ولو كان إماما — هذه الوقفة الصلبة فى وجه أمير المؤمنين الذى يحكم بمقتضى نظرية الحق الآلهى ، ويتصور أنه ظل الله على الأرض.. فلا راد لحكم رآه .. ولا معارض لمشيئته حتى ولو كانت مشئيته تتعلق بأمور العلم والفلسفة..

* * *

أنظر إليه وهو يستفتح رسائله لم إلى اسحاق بن ابراهيم بهذه العبارة : « أما بعد، فان من حق الله على خلفائه فى أرضه ، وأمنائه على عباده ، الذين ارتضاهم لإقامة دينه وحملهم رعاية خلقه، وأمضاء حكمه وسنته ، والإئتمام بعدله فى بريته ، أن يجهدوا لله أنفسهم ، وينصحوا له فيما استحفظهم وقدرهم ويدلوا عليه تبارك وتعالى ، بفضل العلم الذى أودعهم ، والمعرفة التى جعلها فيهم ، ويهدوا إليه من زاغ عنه ، ويردوا من أدبر أمره، وينهجوا لرعاياهم سمعة نجاتهم، ويقفوا على حدود إيمانهم وسبيل فوزهم وعصمتهم .. الخ » .

لو تمعنت فى هذه العبارة مليا فسوف تكشف لك الكثير من خفايا الفكر السياسى عند خلفاء بنى العباس . الذين ارتضاهم الله خلفاء له عز وجل فى الأرض ، وأمناء على عباده فالمأمون يصدر فى أعماله من هذا المفهوم الذى ينسب سلطان الحاكم إلى سلطان الله جل وعلا ، وليس إلى الإرادة الحرة من جانب جماعة المسلمين فى اختبار الخليفة ولو كان لنا أن نذكر المأمون بالقوة التى مكنته من الحكم فسوف نذكره بسيوف الفرس التى انتصرت له ضد أخيه الأمين . وهو انتصار سببه التعصب العرقى البحت . فقد كانت أم الأمين عربية ، وكانت أم المأمون فارسية .

لقد أردنا بهذا الاستطراد أن نلقى بعض الضوء على المفاهيم السياسية التى كانت تحكم الدولة الإسلامية فى ذلك العصر المتطور علميا والمتخلف سياسيا ، والتى كانت تصدر عنها بقية التصرفات سواء فى مجال الحكم أو فى مجال الفكر والرأى . فالمأمون الذى جعل من نفسه ظل الله على الأرض جعل من نفسه أيضاً مناط العلم الإلهى الذى استودعه الله إياه وخزانة المعرفة التى جعلها فيه . ومن ثم فقد توجب عليه أن يحاسب العلماء على معتقداتهم ويردهم عن الكفر الذى زعم أنهم شطوا إليه .

لقد كبر على المأمون أن يقف الإمام أحمد بن حنبل فى وجهه هذه الوقفة الصلبه . مستهينا بكل ما أحاط به من مظاهر البطش والترهيب . وخشى أن يؤدى ثبات الإمام إلى بروزه رمزاً للمعارضة ، الأمر الذى يهدد بخدش العلاقة الموروثه بين خليفة يأمر فيطاع .. ورعية تؤمر فتطيع .. وأفزعه ماكان ينقل إليه من إقبال العامة على الإمام ، يحيطون به فى مساجد بغداد احاطة السوار بالمعصم ، يلوذون به من عوارض الفتنة ، يتشبثون به كى يزود عنهم مخاطر العقائد الدخيلة ، ويمضى بهم إلى موارد الدين النقى ، وابن أبى دواد يجاور المأمون فى طرسوس ، بنفخ فى الكير ،

ويذكي النار بالدس والمبالغة والتهويل ، عندئذ لم يجد المأمون إلا أن يبعث إلى حاكم بغداد يأمره بارسال الإمام إليه مكبلا فى الأغلال .

* * *

وبدأت رحلة العذاب من بغداد إلى طرسوس ، وفى الطريق يتقدم منه أحد التلاميذ ويهمس فى أذنه :

«أنت اليوم رأس ، والناس يقتدون بك ، فوالله لئن أجبت إلى ما يريدون ليجيبن باجابتك خلق من خلق الله . وأن أنت لم تجب ليمتنعن باجابتك خلق كثير ، ومع ذلك فان الرجل .. يعنى المأمون . ان لم يقتلك تموت ، ولابد ان تموت ، فثق بالله ولاتجبهم إلى شئ » فلا يملك الإمام إلا أن يبكى ويرد : « ماشاءالله .. ماشاء الله » .

وشاء الله أن يعفى الشيخ الجليل من هذه المواجهة المرة ، فقبض إليه المأمون قبل أن يصل الإمام إلى طرطوس ، وعاد الإمام إلى بغداد ليواجه الخليفة الجديد ، وتبلغ المحنة ذروة القسوة والعنف على يد المعتصم الذى لم يتورع عن جلد الإمام بالسياط .

ولنا ان نتساءل : كيف تجرأ المعتصم على اورتكاب هذه الفعلة الشنعاء فاشرف بنفسه على تعذيب الإمام . وأمر

جلاديه أن ينهلوا بالسياط على جسده النحيل المكبل بالاغلال .. ؟ ثم . . ماهى الجريمة التى ارتكبها الإمام أحمد حتى يستحق من أجلها هذا العقاب المزرى الذى هو أحط ما عرفت البشرية من فنون العقاب .. ونعنى به الضرب بالسياط ؟ وماهو السند الذى أباح للمعتصم انتهاك كرامة الجسد الانسانى .. إلا أن تكون شريعة الغاب التى لاتقيم وزنا لظروف الضحية العزلاء عندما يضعها قدرها بين براثن وحش مفترس ...

هل خرج الإمام أحمد على حدود الدين الحنيف .. ؟ . حاشا لله .. كل مافعله أنه رفض الاذعان لمقالة المعتزلة حول قضية فلسفية دخيلة على الفكر الإسلامى هى مسألة خلق القرآن ..

فما هى اذن الدوافع الحقيقية التى حدت بالمعتصم إلى ركوب هذا المركب الصعب .. ؟ .

* * *

فى تصورى أن هناك عوامل نفسيه وخلقية وسياسية هيأت للمعتصم حماقة التطاول على شيخ كبير فى مكانة أحمد ابن حنبل . وقبل أن ادخل فى تفصيل ماأعنيه أحب أن أذكر القارئ أن المعتصم هذا .. هو الذى فتح الباب أمام النفوذ

التركى ليصبح الضلع الثالث فى مثلث الصراع على السلطة ، الذى كان العرب والفرس يمثلان ضلعه الآخرين . فقد أراد أن يمارس لعبة التوازن بين العصبتين العربية والفارسية بإدخال عصبية ثالثة تكبح من جماحهما وتقلل من شأنهما ومادرى أنه فتح نافذة للفتنة لم يهدأ أوارها حتى عصفت بدولة بنى العباس . ودفع من جاء بعده الخلفاء الثمن من كرامتهم وسلطانهم وحياتهم فأصبحوا العوبة فى أيدى القادة الترك ، وكانت مصارع الكثيرين من هؤلاء الخلفاء على أيدى السادة الجدد الذين صارت إليهم مقاليد الحكم الفعلى ولم يبق للخليفة القابع فى بغداد سوى رسم اسمه على النقود ، والدعاء له فى خطب الجمعة .

وكان من الطبيعى أن يتأثر المعتصم بهذا العنصر الوافد الذى تجمعه به صفات وراثية اكتسبها من أمه التى كانت جارية تركة ، فأخذ عنهم حدة المزاج والخشونة والقوة البدنية الخارقة ، كما أخذ منهم ضيق الافق وكراهة الحوار وبغض الجدل والتعصب للرأى ولو كان خطأ .

فإذا عرفنا ان المعتصم كان منذ صباه عزوفا عن العلم كارها للمعرفة محبا للعسكرية ، معجبا بقوته العضلية لأدركنا مكوناته النفسية التى جعلته عاجزاً عن معالجة قضية الإمام أحمد بما ينبغى أن تعالج به قضايا الرأى والفكر .

وفى رأى بعض المؤرخين أن المعتصم لم يكن على دراية كافية بمسألة خلق القرآن التى ثارت من أجلها قضية الإمام وأن تبنيه للقضية إنما سببه أنه ورثها عن سلفه المأمون فكان عليه أن يستمر إلى نهاية الشوط وفاء لذكرى أخيه (وقد ورد هذا المعنى على لسان المعتصم عندما كان يحاجج الإمام فيقول له : « لولا أننى وجدتك فى يد من كان قبلى . . ماتعرضت لك» .

وهناك دليل آخر على أن المعتصم لم يكن جادا فى معالجة القضية علاجاً فكرياً ، هو إلحاحه على الإمام أحمد ليقول بضع كلمات ترضى غرور الخليفة وتكفيه مشقة التعذيب إذ روى الإمام ان المعتصم انتحى به قبيل تعذيبه وهمس فى إذنه .. « ويحك ياأحمد .. أجبنى حتى أطلق عنك يدى .. فإنى والله عليك لشفيق ».

ولكن رفض الإمام وأصراره على موقفه دفعا بالمعتصم إلى العنت فأخذته العزة بالاثم ، كبر عليه أن يقف الإمام منه هذا الموقف المتصلب .

ولست أشك فى أن المأمون لو طال به الأجل وواجه الإمام لكان له معه شأن آخر ، ولكان أسلوبه فى معالجة الأمر مختلفاً عن أسلوب المعتصم ، وهو خلاف يساوى

المسافة القائمة بين الأخوين فى حظهما من العلم والثقافة ، وأخال أن اللقاء بين المأمون وابن حنبل لم يكن يتعدى حدود الحوار والمناظرة ولعل رغبة المأمون فى ذلك هى التى دفعته إلى استدعاء الإمام ليحاوره لا ليؤذيه . فلا أتصور أن المأمون كان يسمح ليده بأن تمتد إلى الشيخ المهيب بمثل ما امتدت به يد المعتصم وكان المأمول أن يعالج المأمون القضية بما فطر عليه من حب للجدل والحوار . على عكس أخيه الذى كان مفتوناً بقوته العضلية وليس من شك فى أن ثقافة المأمون كانت عاصماً تمنعه من إيذاء الإمام .

ويجب أن أضيف إلى كل ماسبق . قرينة أخرى هى حب المأمون للعفو ، فتاريخه حافل بالمواقف التى أثر فيها العفو عن ألد أعدائه والمتمردين عليه ، حتى اشتهر عنه قوله : « لو علم الناس مالنا فى العفو من لذة . . لتقربوا إلينا بالجنايات . . » .

فهذه الفضائل الخليقة والنفسية والعقلية التى كانت للمأمون كان حظ أخيه منها قليلا إن لم يكن معدوما ولذلك جاءت تصرفاته مع الإمام أحمد متمشية مع طباعه التى تكره الجدل وتضيق بالنقاش وتأبى إلا أن تمارس النزعة العسكرية الجافة فى قضايا الرأى والخلاف .

عاد الإمام أحمد من طرطوس إلى بغداد وقت أن آلت مقاليد الخلافة المعتصم وشغله مايشغل الحاكم الجديد من أمور ومضت ثلاثون شهراً قضاها الإمام فى سجن بغداد مع اللصوص والقتلة قبل أن يتذكر الخليفة قضيته ويعيد فتح ملفها من جديد ، وهناك شبه إجماع على أن زعيم المعتزلة أحمد بن أبى دؤاد كان القوة المحركة للبت فى قضية ابن حنبل قبل ان يصبح زعيماً شعبياً تلتف من حوله قلوب العامة ، والثابت أن ابن أبى دؤاد ظل فى مكانه الأثير من قصر الخليفة الجديد يدس إليه ويحرضه على قتل ابن حنبل كما كان يفعل مع سلفه .

وتعددت المناظرات بين قضاة المعتزلة والإمام أحمد على مشهد من المعتصم فكان الإمام لا زيد على قوله : «أعطونى شيئاً من كتاب الله أوسنة رسوله حتى أقول به » وربما كان هذا الثبات من جانب الإمام ، وتمسكه الشديد بالكتاب والسنة حرك كوامن الإعجاب فى نفس المعتصم فتلطف به ووعده بأحسن الجزاء إن هو قال بضع كلمات تنهى المسألة وقال على مسمع من الحضور : والله لئن أجابنى لأطلقن عنه يدى . ولأركبن إليه بجندى ولأطأن عتبته » .

ولمس ابن أبي داود بوادر اللين تتسرب إلى قلب المعتصم فخاف أن تنتهي قضية الإمام بانتصاره وزوال دولة المعتزلة فبدأ يضرب على الوتر الحساس ، ويثير فى نفس المعتصم عزة السلطة التى تأبى الرضوخ والتساهل مع ، المعارضين فكان يقول له : « إن تركته قيل إنك تركت مذهب المأمون وسخطت قوله ... وانه .. أى الإمام .. غلب خيفتين » .

وهنا نلاحظ مدى استغلال ابن أبى دواد اسم المأمون ونسبة المذهب الاعتزالى إليه ، مما يؤكد إن المعتصم لم يكن مشغولا بالقضية إلا من حيث ارتباطها بالمأمون شأنها فى ذلك شأن كثير من الموروثات التى وجدها فكان عليه أن يبت فيها .

* * *

فلما كان اليوم المشهود فى العشر الأواخر من رمضان بلغ تأثير المعتزلة على المعتصم مداه . ووصل إلى نقطة اللاعودة عن تعذيب الإمام الذى يروى بنفسه وقائع الحادث الشنيع :

«فلما كان الغد وجه إلى فأدخلت فإذا الدار غاصة—فجعلت

أدخل من موضع إلى موضع وقوم معهم السيوف وقوم معهم السياط وغير ذلك . فلما انتهت إليه . أى الخليفة . . قال : أقعد .. ثم قال : ناظروه وكلموه . . فجعلوا يناظروننى وجعل صوتى يعلو أصواتهم . فجعل بعض من على رأس قائم يومئ إلى بيده . . فلما طال الجدل نحانى ثم خلا بهم ، ثم نحاهم وردنى إليه ، وقال :

ويحك يا أحمد .. أجبنى حتى أطلق عنك بيدى فرددت عليه نحوا مما كنت أردد ؟ .

فقال لى : عليك (وذكر اللعن)

ثم قال : خذوه .. اسحبوه .. واخلعوه .

فسحبت ثم خلعت ونزعوا القميص عنى وجلس المعتصم على كرسى ثم قال :

العقابين والسياط ..

فجئ بالعقابين والسياط فمددت يدى فقال بعض من حضر خلفى : خذ ثانى الخشبتين بيديك وشد عليهما فلم أفهم ما قال : فتخلعت يداى . ثم تقدم الجلادون . .

فجعل يتقدم الرجل منهم فيضربنى سوطين ، فيقول لهم المعتصم :

شد .. قطع الله يدك . .

ثم يتنحى فيتقدم الآخر فيضربنى سوطين ..

فلما ضربت تسعة عشر سوطاً . قام إلى فقال :

ياأحمد ، علام تقتل نفسك ، إنى والله عليك شفيق .

وجعل عجيف (الجلاد) ينخسنى بقائم سيفه ويقول : تريد أن تغلب هؤلاء كلهم ..

وجعل بعضهم يقول : ياأمير المؤمنين ، دمه فى عنقى. اقتله وجعلوا يقولون : ياأمير المؤمنين انت صائم وأنت فى الشمس قائم .. ؟ .

فقال لى : ويحك ياأحمد ما تقول ؟ .

فأقول : أعطونى شيئاً من كتاب الله عز وجل وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . أقول به .

ثم قال للجلاد : تقدم أوجع . قطع الله يدك ..

ثم قال الثانية وقال : ويحك ياأحمد . أجبنى إلى شيء فيه أدنى فرج ، أطلق عنك بيدى .

فأقول : أعطونى شيئاً من كتاب الله أو سنة رسوله حتى أقول به .

فرجع وجلس ، فقال للجلادين : تقدموا ..

فجعل الجلاد يتقدم ويضربنى سوطين ثم يتنحى .

فقال الإمام أحمد :

فذهب عقلى .. فأفقت بعد ذلك فإذا الاقياد قد أطلقت عني وآتوني بسويق ، فقالوا : لى : اشرب وتقيأ ، فقلت : لست أفطر .

ثم جئ بى إلى دار اسحاق بن ابراهيم (حاكم بغداد) فحضرت صلاة الظهر . فتقدم ابن سماعة فصلى . فلما انفتل من الصلاة قال لى :

صليت والدم يسيل من ثوبك .

فقلت : لقد صلى عمر وجرحه يثعب دما .

تلك محنة أحمد بن حنبل التى ذهبت فى التاريخ مذهب المثل الأعلى فى الثبات والجلد والصبر على المكاره وبقيت على مدى اثنى عشر قرناً تثير فى حياة المسلم خاصة والإنسان عامة أنبل الأحاسيس واقدرها على مقاومة الطغيان .

قاهر الاستبداد

يؤلمنى دائماً من السينما العربية إصرارها على الاهتمام بحياة الراقصات والغوانى ، حتى نشأت بينى وبين الشاشة الكبيرة خصومة خفية جعلتنى أعرض عنها إعراضاً شبه تام . بينما كنت فى صدر شبابى من عشاقها المخلصين .

فليس من مظاهر الصحة العقلية والإجتماعية أن نخلد بطولات بديعة مصابني ونعمة كشر ودلال المصرية وشفيقة القبطية ، وأن نرسخ فى أذهان الناس أنها نماذج البطولة النسائية فى المجتمعات الشرقية ، بينما صفحات التاريخ القديم والحديث مليئة بالنماذج العظيمة التى تستحق التخليد والتمجيد سواء من الرجال أو من النساء .

ولكن .. والحق يقال .. لاحظت أن شركات الانتاج بدأت فى السنوات الأخيرة تتنبه إلى هذا القصور والتقصير فاتجهت إلى تسليط الضوء على حياة الأعلام ، فشاهدنا فصولا من حياة (المتنبى) على شاشة التليفزيون ، وقبلها شاهدنا مسلسلا عن قادة الفتوحات الإسلامية ، ومسلسل تليفزيونياً عن طه حسين والعقاد) ، ولكن الذى أدهشنى حقاً ، إنتاج مسلسل عن (عبد الرحمن الكواكبى) . ومصدر الدهشة ، وهى ممزوجة بالاعجاب ، أن حياة هذا الفكر الفذ بقيت طى الكتمان على التيار العام للثقافة العربية ، فلايرد اسمه إلا لماما ، ولا يأتى ذكره إلا خلسة وعلى استحياء. حتى أن الكثيرين يظنون أنه ينتمى إلى العصر العباسى أو العصر السلجوقى .. مع أن الفاصل الزمنى بيننا وبينه لايتجاوز ثمانين عاماً . فقد شغلت سنوات عمره النصف الثانى

من القرن التاسع عشر ولحق سنتين من القرن العشرين . ولكن دوافع التعتيم على حياة الرجل سوف تتكشف أمامنا إذا ألقينا نظرة منصفة على فكر الرجل الذى يتناقض بالطبع مع فكر أجهزة الثقافة والتعليم فى البلاد العربية، وهى أجهزة لاتنظر بارتياح إلى هذا اللون من التفكير الذى يوقظ العيون الغافلة ، ويهز القلوب الخائفة ، ويدفع الانسان دفعاً إلى البحث والتنقيب عن الحقوق الضائعة بين المحكومين والحكام .

ظهر الكواكبى على مسرح الفكر السياسى العربى فى أشد فترات التاريخ المعاصر ظلاما وقتامة ، فالدول العظمى تقاسمت العالم العربى والإسلامى نهباً واستعماراً ، والدولة العثمانية كانت تعيش النزع الأخير من حياتها المديدة ... وهى فى هذا الدور من أطوارها تعانى صحوة الموت على يد السلطان عبد الحميد الذى صور له غروره أن البطش والقهر والاستبداد كفيل بتعطيل سنة التاريخ التى تقضى بالفناء على الدول إذا دب فيها الفساد والانحلال . لقد تنكر عبد الحميد لكل دعوات الاصلاح التى نادى بها المصلحون الحريصون على بقاء دولة الخلافة ، وأخذ يعصف بكل فكرة تنادى بتنظيم العلاقة بين الدولة الحاكمة

والشعوب المحكومة ويرى فيها خطراً على عرش سليل آل عثمان،وكان نصيب الشام من بطش عبد الحميد كبيراً وداميا .

تفتح وعى الكواكبي فى مدينته (حلب) على صوت جمال الدين الأفغانى وهو يدوى فى أرجاء العالم الإسلامى داعياً إلى مقاومة الاستعمار ومناوأة الاستبداد ، وتسللت إليه أعداد (العروة الوثقى) التى كان يصدرها الأفغانى من باريس مع تلميذه محمد عبده . فكان الأحرار فى العالم العربى يتلقفونها فى لهفة ، ويحفظون سطورها فى قلوبهم قبل أن تصادرها السلطات فتعاقب من يقتنيها بغرامة خمسة جنيهات بأسعار ذلك الزمان .

وتشبعت نفس الفتى بفكرة واحدة ظلت مسيطرة عليه حتى آخر نفس من حياته ، وهى أن الاستبداد السياسى هو سبب كل البلاء الذى أدى إلى انهيار الدولة الإسلامية وتفككها ، وهو السبب فى انحطاط الشعوب خلقياً وتربوياً واقتصاديا . . فجعل من هذه الفكرة منطلقاً إلى كفاحه من أجل الارتقاء بالشعوب العربية والإسلامية ، مستهينا بكل ألوان التنكيل التى تعرض لها سجنا ونفياً وتشريداً ومصادرة للمال متقبلا كل ذلك بنفس راضية وشجاعة خارقة ، وعزم لايلين .

وكانت نشأة الفتى فى حلب فى بيت من بيوت الأشراف التى تعتز بنسبها وعلمها وجاهها ، بمثابة اللبنة الأولى فى تكوين شخصيته المميزة . وليس من شك فى أن ظروف النشأة تلعب دوراً مؤثراً فى حياة الداعية ، فأسرة الكواكبى كانت لها نقابة (الأشراف) ولها مدرسة تسمى المدرسة الكواكبية تقدم العلم للتلاميذ على النهج الأزهرى ، وأبوه يلقى دروس العلم فى الجامع الأموى بحلب وفى المدرسة الكواكبية أيضا ، وخالته التى تعهدته بعد وفاة أمه كانت من نوادر النساء فى الشرق ، عرفت بالأدب والكياسة ورجاحة العقل ، وفى هذا المناخ المشبع بالعلم والشرف والنزاهة وحب الحق والخير .. تفتحت ينابيع المعرفة فى نفس الفتى عبد الرحمن ، فما أن شب عن الطوق حتى أصبح نموذجاً للرجل الذى يستعصى على ناقد الأخلاق نقده، فيصفه العلامة أحمد أمين بهذه النعوت : مؤدب اللسان فلا تؤخذ عليه هفوة ، يزن الكلمة قبل أن ينطق بها وزناً دقيقاً حتى لو ألقى عليه السلام لفكر فى الاجابة ، متزن فى حديثه ، إذا قاطعه أحد سكت وانتظر حتى يتم حديثه ثم يصل ما انقطع من كلامه ، فيؤدب بذلك محدثه ، نزيه النفس لايخدعها مطمع ولا يغريها منصب ، شجاع فيما يقول

ويفعل ، مهما جرت عليه شجاعته من سجن وضياع مال وتشريد ، وهو .. مع أنفته وعزته وصلفه على الكبراء . متواضع للبائسين والفقراء، يقف دائماً بجانب الضعفاء، يشع على من يجالسه الاتزان والتفكير الهادئ ، وحب الحق ونصرة المبدأ والتضحية للفضيلة .

تلك بعض من صفاته وخلقه .

أما حياته العملية فكانت صورة فريدة للداعية الذى جمع بين الفكر النظرى والكفاح العملى ، فما أتم دراسته حتى انغمس فى الحياة العامة ، فأضاف إلى ثقافته النظرية خبرة وتجربة بشئون الحياة ، ومارس ألوانا متباينة من الأعمال والوظائف : فمن محرر لجريدة رسمية ، إلى رئيس كتاب المحكمة الشرعية ، إلى قاض شرعى فى إحدى المدن السورية. إلى رئيس بلدية . . وهو بين الحين والحين يعتزل الوظائف الحكومية فينشىءلنفسه جريدة (الشهباء) وهو اسم الشهرة لحلب ، أو يشتغل بالتجارة ، أو يقوم بمشروعات عمرانية مثل تجفيف المستنقعات والتنقيب عن المعادن وجلب ماء نهر السجاور إلى حلب وانتاج الكهرباء من شلالات أنطاكية ، وهو فى كل الأعمال الحكومية والحرة يصطدم بنظام الدولة وباستبداد الولاة الأتراك ، وفساد رجال

الإدارة، فينازلهم وينازلونه ، ويحاربهم ويحاربونه ينتصر عليهم حينا وينتصرون عليه أحياناً ، سلاحه دائماً العدل والنزاهة والاستقامة وسلاحهم دائماً الدس والخديعة واتهامه بالخروج على النظام وإثارة الشعب . لقد هاله ما يعانيه شعبه من ظلم واجحاف على أيدى الولاة ، فجند نفسه للدفاع عن الحق والعدل ، وبالكلمة المكتوبة فى صحيفة ، و بالكلمة المسموعة يجهر بها ساحات الحاكم محامياً ومدافعاً عن حقوق المستضعفين ، حتى اكتسب بحق لقب (ابو الضعفاء) جرىء فيما يقول ، لايقر ظالماً على ظلمه ولا يسالم جائرا لمنصبه أو جاهه ، حتى كان صدامه مع والى حلب التركى (عارف باشا) الذى كان يغتصب أراضى المزارعين ظلما وعدوانا . فتصدى له الكواكبى جهارا نهاراً وأخذ يحرض الناس على رفع صوتهم معه والشكوى إلى الباب العالى فى الآستانة ، فانتقم عارف باشا لنفسه بأن لفق قضية خلاصتها أنه يسعى لتسليم حلب إلى دولة أجنبية ثم سجنه وقدمه إلى محكمة صورية حكمت عليه بالاعدام ، إلا أن أصدقاء الكواكبى بذلوا مسعاهم لنقل المحاكمة من حلب إلى بيروت . وهناك ظهرت حقيقة الأوراق المزورة التى لفقها الوالى ، فحكم له بالبراءة ، وبعدها أيقن الكواكبى انه لامقام له فى ظل الفساد التركى الذى شاع كالسرطان

فى كافة أنحاء البلاد الشامية ، فشد الرحال إلى مصر لتبدأ مرحلة جديدة من حياته الخصبة ، وبدأ فى نشر الفصول التى كان قد كتبها خلال فترة السجن ، ثم أخذت تصافح وجوه الأحرار فى مصر والبلدان العربية على صفحات جريدة (المؤيد) التى كان يصدرها الشيخ على يوسف وهى الفصول التى جمعها بعد ذلك فى كتاب (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) .

قبل الحديث عن هذا الكتاب الذى يعتبر نقلة هامة فى تاريخ الفكر السياسى العربى ، أود التوقف قليلا عند ظاهرة هجرة الكتاب والمفكرين الشاميين إلى مصر فى تلك الفترة ، وما كان من آثرها فى ازدهار الحياة الثقافية فى مصر وخاصة فى مجالى الصحافة والمسرح .

* * *

المعروف أن مصر كانت من طليعة البلدان العربية التى شهدت حركات الاستقلال عن الدولة العثمانية حتى من قبل ظهور محمد على بثلث قرن ، وأعنى بذلك حركة على بك الكبير ، ذلك المملوك البلغارى الأصل الذى بعثت به الاستانة لحكم مصر ، فطمع إلى الاستقلال بها ، وقاد الجيش شمالا فاستولى على حلب فاكتسب لقب (الكبير)

وقبل أن يواصل مشواره إلى الأراضي العثمانية كان الباب العالى قد اشترى ذمة حليفه وقائد جيوشه وزوج ابنته محمد بك أبو الذهب ، فانقلب على أستاذه وولى نعمته وغدر به ، وفى عام ١٧٧١ شهدت صحراء الصالحية ختام المأساة بمصرع على بك ، أسدل الستار على هذه البروفة الاستقلاليه الفاشلة ، وسوف يظل مسدلا حتى ظهور محمد على لبيدأ عملية سلخ مصر عن دولة آل عثمان موتطلعه إلى بناء دولة عربية فتية تسحب لواء الزعامة الإسلامية من تركيا ، ثم ما كان من تحالف الدول الأوروبية ضده ومحاصرة تطلعاته داخل حدود مصر ، إذ رأت أن بقاء الرجل المريض فى تركيا .. ولو إلى حين . . أفضل بكثير من قيام دولة عربية كبرى ، وكان انسلاخ مصر عن تركيا يقابله على الطرف الآخر من محور (القاهرة .. حلب) ازدياد حدة البطش التركى تشبثاً بما تبقى لها من درر العالم العربى ، وتفشت فى أنحاء البلاد الشامية عمليات البطش والتنكيل بأية حركة تتطلع إلى الاستقلال . وكانت عملية الانتقام .. بعد خروج الجيش المصرى من الشام . . ورجعة السلطة التركية من أبشع ماشهده الشام على أيدى بعض الولاة السفاحين ، وآخرهم جمال باشا صاحب المذبحة الشهيرة .

وجاء الاحتلال البريطانى لمصر عام ١٨٨٢ ليضع خاتمة النهاية لرابطة مصر بتركيا ، وظهرت فى مصر قوة جديدة بديلا عن قوة الوالى التركى ، هى قوة المعتمد الإنجليزى الذى عمد إلى استئصال بقايا الهيمنة التركية فى مصر . واظهار طبقة جديدة من كبار الملاك المصريين حلت محل الأتراك والشركس والأرناؤوط ، وسادت الحياة السياسية والثقافة والاجتماعية مظاهر جديدة على النمط الغربى لم تكن معروفة أثناء التبعية لتركيا ، وبدأت بذور الحياة الدستورية والعلاقات المقننة تظهر من خلال العلاقات بين الأفراد والدولة ، الأمر الذى كان مغايرا للوضع السائد فى الشام . وكان من الطبيعى أن يجتذب هذا المناخ المتحرر من البطش التركى ، أحرار الشام ومثقفيه وفنانيه ، فكانت هجرة أديب أسحق وشكيب أرسلان وجورجى زيدان وجورج نقاش ثم عبد الرحمن الكواكبى بعد أن أفلت حبل المشنقة .

* * *

وأعود إلى الحديث عن كتاب (طبائع استبداد) للكواكبى فأقول إننى منذ بدأت إهتماماتى بالقراءة السياسية وأنا أسمع عن هذا الكتاب ، دون أن أتمكن من العثور على نسخة منه أو قراءته ، ولذلك فسوف أعرض مجملا لأفكار

الكتاب من خلال الفصل الذى كتبه العلامة أحمد أمين عن عبد الرحمن الكواكبى فى كتاب (زعماء الاصلاح فى العصر الحديث) .

يدور الكتاب حول تعريف (الاستبداد) بأنه صفة للحكومة المطلقة العنان التى تتصرف فى شئون الرعية كما تشاء بلا خشية حساب ولاعقاب . ويأتى هذا من كون الحكومة مطلقة التصرف ، ولايقيدها قانون ولا إرادة إمة ، أو تكون مقيدة بنوع من ذلك ولكنها تملك بنفوذها ابطال هذه القيود والسير على ما تهوى ، والحكوما ميالة بطبعها إلى الاستبداد ، لايصدها عنه إلا وضعها تحت المراقبة الشديدة ومحاسبتها محاسبة لاتسامح فيها ، وإلا قوة الرأى العام وعظمة سلطانه .

والمستبد .. فى نظر الكواكبى .. يتحكم فى شئون الناس بارادته لابارادتهم ، ويحكم بهواه لابشريعتهم ، والمستبد عدو الحق ، وعدو الحرية وقاتلها ، ويرى أن الإسلام فى جوهره الأصيل مبنى على قواعد الحرية السياسية متوسطة بين الديمقراطية والارستقراطية فهو مؤسس على أصول ديمقرطية (أى المراعاة التامة للمصلحه العامة) وعلى شورى أرستقراطية (أى شورى الخواص وهم أهل الحل والعقد)

والإسلام لايعرف سلطة دينية ، ولا اعترافا ، ولابيع غفران لامنزلة خاصة لرجال الدين ، ولكن دخل عليه من الانحراف ما دخل على كل دين ، فتفرقت كلمة المسلمين وانقسموا شيعا ، وتحول الحكم من نظام شورى إلى الاستبداد فصغرت نفوس الناس ، وخفت صوتهم ، وأضاعوا مبدأ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وهو المبدأ الذى به يراقب أولوا الأمر فى الأمة ، فصار أمر المسلمين إلى مانرى .

ثم أبأن أن الحاكم المستبد يخشى العلم ، لأن العلم نور وهو يريد أن تعيش الرعية فى الظلام لأن الجهل يمكنه من بسط سلطانه ، • لا يخشى علوم اللغة والأدب ولا علوم الدين المتعلقة بالحياة الأخرى ، بل هو يستخدم العلماء من هذا القبيل لتأييد استبداده ، وإنما ترتعد فرائصه من الفلسفة العقلية ودراسة حقوق الأمم وعلوم السياسة والإجتماع والتاريخ المفصل والقدرة على الخطابة الأدبية ونحو ذلك من العلوم التى تنير الدنيا ، وتثير النفوس على الظالم ، وتعرف الانسان حقوقه وكيف يطلبها وكيف ينالها وكيف يحفظها . والحاكم حقوقه وكيف يطلبها وكيف ينالها وكيف يحفظها . والحاكم المستبد يخاف رعيته كما تخافه رعيته ، بل خوفه منهم أشد لأنه يخافهم عن علم ، وهم يخافونه عن جهل ، وقد اعتاد

المؤرخون المحققون قياس درجة استبداد الحاكم بمقدار ضرره ، درجة عدله بمقدار طمأنينته ، ومن دلائل تغلغل الاستبداد فى الأمة أستكناه لغتها ، فان كثرت فيها ألفاظ التعظيم وعبارات الخضوع كاللغة الفارسية ، دلت على تاريخها القديم فى الاستبداد ، وإن قلت . . كالعربية قبل امتزاجها بغيرها .. دلت على الحرية .

وعلى الجملة فأخوف مايخافه المستبد من العلم ، العلم الذى يعلم أن الحرية أفضل من الحياة ، والشرف أعز من المنصب والمال ، والحقوق وكيف تحفظ ، والظلم ، وكيف يرفع ، والانسانية وقيمتها ، والعبودية وضررها . والكواكبى فى كل هذا ، يقرأ نتاج القرائح التى كتبت فى الاستبداد ، وينظر إلى الدول العثمانية فى عهده ، ويستعلى منها آراءه وأحكامه ، ثم يعرض للعلاقة بين الاستبداد والمجد ، ويعنى بالمجد رغبة الانسان فى أن تكون له منزلة حب واحترام فى قلوب الناس ، ويراه مطلبا طبيعيا وشريفاً ، ويبلغ عند بعض الأفراد أن يكون أقوى وأوجب من الحرص على الحياة . ولذلك عاب على و ابن خلدون انتقاده للامام الحسين ابن على وأمثاله لأنهم عرضوا أنفسهم للموت بخروجهم فى فئة قليلة على الخليفة ذى السلطان والشكيمة ، فألقوا

بأنفسهم إلى التهلكة ، فقال الكواكبي : انهم معذرون لأنهم فضلوا الموت كراما على حياة الذل التي كان يحياها ابن خلدون ، وهم في ذلك مثل كرام السباع والطير والوحوش التي تأبى التناسل في أقفاص الأسر ، وتحاول الانتحار تخلصاً من قيود الذل ، ثم يعرض الكواكبي لأثر الاستبداد في فساد الأخلاق . حيث يفقد الانسان لذة العزة والشمم والرجولة ؛ ولايذوق إلا اللذة البهيمية لأنه لايعرف غيرها ، وهو يلعب بالأخلاق فيجعل من الفضائل رذائل ، ومن الرذائل فضائل : فيسمي النصح فضولا ، والشهامة تجبرا ، والحمية طيشا ، والانسانية حمقاً ، والرحمة مرضاً ، كما يسمي النفاق سياسة ، والتحايل كياسة ، والدناءة لطفاً . والبذاءة دماثة وظرفاً ، والاستبداد أفسد عقول المؤرخين ، فسموا الجبابرة الفاتحين عظماء أجلاء ، وهو يفقد الثبات في الخلق ، فقد يكون الرجل شجاعاً كريماً فيصبح بعوامل الاستبداد جبانا بخيلا وهو يرغم الأخيار من الناس على ألفة الرياء والنفاق ، ويعين الأشرار على فجورهم ، آمنين حتى من الانتقاد والفضيحة لأن أكثر أعمالهم تظل مستورة ، لايجرؤ الناس على قول الحق أمامهم خوف العقاب .

والاستبداد يفقد الناس ثقة بعضهم ببعض ، ويحل الخوف محل الثقة ، فيقل التعاون بين الافراد ، والتعاون حياة الأمم .

والأنبياء سلكوا فى تكوين الأخلاق مسلكا ، فبدأوا بفك العقول من تعظيم غير الله ، وذلك بتقوية الإيمان المفطور عليه الانسان ، ثم جهدوا فى تنوير العقول بمبادئ الحكمة وتعريف الانسان كيف يملك إرادته وحريته فى أفكاره ، وبذلك هدموا حصون الاستبداد ، ثم أبانوا أنه مكلف بقانون الانسانية واتباع المبادئ التى ترقيه وترقى جنسه .

* * *

تلك فكرة موجزة عن كتاب (طبائع الاستبداد) وللكواكبى كتاب أخر اسمه (أم القرى) وقف فيه من المسلمين موقف الطبيب المعالج ، فمن خلال أسلوب قصصى جذاب يتخيل حوارا بين مجموعة من المسلمين ينتمون إلى كافة البلدان الإسلامية ويتداولون فى حال المسلمين وضمنه المؤلف خلاصة مشاهداته العميقة التى خلص إليها بعد جولة قام بها فى بلاد المشرق .

* * *

فى عام ١٩٠٢ انتهت أزمة الثقة التى كانت قائمة بين خديوى مصر عباس حلمى الثانى ، والسلطان عبد الحميد واعتزم عباس زيارة عبد الحميد فطلب من الكواكبى أن يرافقه فرفض ، وكان المطلب فى حد ذاته إشارة مهذبة إلى

المفكر العظيم للكف عن مهاجمة السلطان ، بل إشارة خفية إلى قرب نهايته . . فبعد عودة عباس إلى الاسكندرية دعى الكواكبي لتناول العشاء على مائدة الخديوى فلبى الدعوة ولما عاد فى المساء شعر بالامحادة فى بطنه ، وما أن أشرق الصباح حتى أسلم الروح ، وما أن علم السلطان بموته حتى أوفد من نبش أوراقه التى تضمنت أصول كتابين آخرين هما (صحائف قريش) و (العظمة لله) وفيه يدعو قومه إلى عدم الخنوع أو العبودية لغير الله .

خضرة الشريفة

تلقيت أول درس فى التاريخ من عمتى العجوز ، وكانت تقوم مقام جدتى فلا أنام قبل أن تسكب فى أذنى كلمات معسولة لها رنين السجع ، وترسم لعيونى صوراً وردية مستوحاة من حواديث وأساطير قديمة ، فاذا اسلمت عيونى للكرى استيقظت هذه الصور من مكمنها..واستحالت شخوصا حية تتحرك وتتلاحم بالسهام والسيوف حينا .. و بأبيات الشعر الركيك حينا آخر .. وفى كلتا الحالتين تعد النفس بهذه الرؤى الخيالية ، وتجد فيها لذة غامضة مجهولة المصدر والهوية ..

ولقد بقيت هذه الصور مطبوعة فى ذاكرتى رغم

كر السنين ، ومازلت أذكر حكاية «خضرة الشريفة» التى يبدو من اسمها أنها كانت من ذات الحسب والنسب ، كيف طمع فيها (فرنيس) ملك الفرنج . فاختطفها وهى تتجول مع وصيفتها على ضفاف النيل ، ثم أرغمها على ركوب (الغليون) .. وهو ما يسمى بلغة العصر يختا بحريا . . وكيف عاشت خضرة الشريفة فى جحيم الأسر دون أن تضعف أو أن تلين ، وفشلت الضغوط والاغراءات التى بذلها الملك الصليبي لاقناع خضرة بالزواج منه — فلما تقطعت به حبال الصبر ، قرر أن ينالها غصباً .. وأعد لذلك حفلة صاخبة أريقت فيها الخمور ونحرت الذبائح ، وأقيمت الولائم ، وعندما أوشك الفرنيس أن يفتك بفريسته ، هتفت خضرة من قلبها : (ياسيد يابدوى) فما هى إلا غمضة عين حتى كان السيد البدوى قد لبى النداء ، وطار إليها فى مملكة الفرنيس .. ومعه أركان حربه عبد العال ومجاهد ، وبعد أن فرغ الثلاثة من افساد الحفل وتدمير الفوانيس ، حمل السيد البدوى خضرة الشريفة على جناحيه ، بينما حمل عبد العال وصيفتها ، ولما لم يجد مجاهد شيئاً يحمله حمل الثريد وبداخلها ذراع الطاهى وهى تقبض على المغرفة ، فقد شاء خيال المؤلف المجهول أن يختلق هذه اللقطة الساخرة للنيل والتهكم على الفرنج الغاصبين . وهى لقطة لو رأيتها

على شاشة السينما فلن تمالك نفسك من الضحك . . المهم أن السيد البدوى عاد بالأسيرة الشريفة ووصيفتها قبل أن ينالهما أذى . . وكل ذلك حدث فى لحظات بين ذهول ملك الفرنج الذى نسى أن لدى المسلمين قوة غير منظورة لايدرى سرها وهى قوة الأولياء الذين يتمعتعون بقادرة . خارقة على اختصار المسافات ، واختراق الصحارى والمحيطات فى لمح البصر .

وأنت تلمس هذا النوع من التاريخ الأسطورى واضحاً فى فترات الضعف والانحلال ، كنوع من التشبث بالقوة الغيبية بعد ضياع القوة المادية والعسكرية ، ولكن يبقى من الأسطورة . معانيها التى توحى بالإباء والشمم والصبر على البلاء حتى يأتى الله بالفرج .

وبعد عمتى ، جاء (صندوق الدنيا) الذى كنا نتجمع من حوله ، ونسلم رؤوسنا الصغيرة إلى عيونه الزجاجية ، فتتحرك من خلفها صور متتابعة زاهية الألوان لشخصيات تاريخية جامدة الملامح . بينما صاحب الصندوق منتصب فوق رؤوسنا يروى لنا بصوته الأجش ، وأسلوبه المنغم حكايات خرافية عن بطولات الزير سالم والزناتى خليفة وأبى زيد الهلالى سلامة ، وغراميات عنتر وعبلة ، وعزيزة

ويونس (اللى خربت تونس — وقالت له سلامات ياخللى . ياواخد عقلى وجننى ..) .

وكما تطور (صندوق الدنيا) فأصبح هو نفسه جهاز العرض السينمائى ، فقد تطورت الحكاية الخرافية وتحولت إلى علم له قواعد ونظريات ، هو علم التاريخ الذى وصل إلينا عبر الكتب المدرسية .. ثم الجامعية .. ثم دراسات الباحثين والمتخصصين وفلاسفة التاريخ . ورغم تطور هذه الدراسات وتقدمها ، إلا أن حنين الإنسان لم يذبل تجاه الصور البديعة التى انطبعت فى خياله منذ طفولته الباكرة حيث كانت القدرة حادة على التخيل .

ولست أشك فى أن كل انسان يحتفظ فى أعماق نفسه ببحيرة ساكنة تضم تباشير ذكرياته الأولى . ولست أشك فى أن كل انسان يحتفظ فى أغوار وجدانه بتلك المملكة السحرية التى تشبه فى سحرها مملكة (اتلانتك) الخرافية التى غرقت فى أعماق المحيط فيأوى إليها كلما أضناه المسير .. وثقلت عليه أوجاع الحياة .. ويلوذ إلى هذا العالم الملئ بالحكايات والأحداث والبطولات والهزائم والانتصارات والمؤامرات والدسائس والذى يضم فى جنباته مملوكا وصعاليك قادة ومماليك . . عظماء ودهماء . . مفكرين وشعراء

ومصلحين كلهم نسجوا عباءة التاريخ وصنعوا لنا هذا العالم الممتع .

وأصبحت أجد راحتى فى الغوص إلى هذا العالم ، ومعايشة شخوصه ، وهو أمر طبيعى لكل من يحمل هموم الدنيا فى رأسه ، ويحلم بعالم ينعم بالعدل والحرية والإخاء والمساواة ويتلاشى فيه الظلم والقهر والاستبداد ..

ولكن ماذ تفعل عندما ترى أحلامك تتبدد .. ؟ وتجد طموحاتك تتبخر تحت وطأة الواقع المرير .. ؟ .

هل تملك إلا أن تهرب إلى عالم الأشباح لتعيش مع الماضى .. وتستعيد قصة البشرية وهى تكافح من أجل الحرية والعدل .. فربما وجدت فيما مضى عزاء وسلوانا .. وربما وجدت ما يطمئن خاطرك . ويشيع فى نفسك الأمل عندما ترى سنن الحياة تفرض أحكامها مهما كانت مرارة الواقع .. فالظالم محكوم عليه بالخذلان حتى لو كسب كل المعارك .. والعظيم يبقى ذكره خالداً حتى لو مات مقهوراً فى معركة الحياة ..

الهزيمة والانتصار .. لاتحسب بنتائج المعارك العسكرية وإنما بمدى توافقها مع قيم الحق والخير والجمال والعدل .

فالحسين بن على هزم فى كربلاء ولكن المبادئ التى خرج من أجلها ، ومات دونها ، أينعت وأثمرت بعد استشهاده.. وبقيت رصيدا يمد الإنسانية بمبادئ الشجاعة والإباء ومقاومة الظلم ، وأباطرة المغول كسبوا معاركهم .. ولكن التاريخ أدانهم ووضعهم فى مرتبة الطغاة لأنهم كانوا عنصر دمار وتخريب ، وشوهوا ما صنعته البشرية من حضارة وتقدم..

وهكذا تجد دائماً الرابطة الوثيقة بين التاريخ والاخلاق ..

فنحن نقرأ التاريخ بمنظار القيم والتقاليد والآداب التى نعتنقها .. وليس بمقياس الكسب المادى . . الأمر الذى يحدد لنا الفارق بين العظمة الحقيقية ، والعظمة المزيفة ..

ومن المؤكد أن الاسكندر وقيصر ونابليون وهتلر وتشرشل يعتبرون نماذج للعظمة فى نظر شعوبهم .. لأنهم أضافوا إلى ممالكهم بلدانا وقارات . . وهيأوا لها مصادر للغنى والثراء الفاحش .. لكنهم ليسوا كذلك بمقياس البطولة الحقة .. والعظمة المجردة .. لأنهم أقاموا هذه الإمبراطوريات على حساب الشعوب المقهورة ... ونهب ثرواتها.. واذلالها.

ونحن عندما نحتكم إلى قاعدة أخلاقية ترفض سيادة جنس على جنس ونأبى نهب ثروات الشعوب ... فسوف تزول هالات المجد من فوق رؤوس هؤلاء الاشخاص ، وسوف

نحكم عليهم بأنهم كانوا مغامرين تعاملوا مع الجنس البشرى بمنطق المصلحة الذاتية .. وهو منطق ضيق .. لأنه يستحل استعمار الدول ويستبيح ثرواتها ..

اتســاع الرؤية التاريخية

لذلك نشعر بحاجتنا إلى (إعادة قراءة التاريخ) وليس (إعادة كتابة التاريخ) .. لأن ما قدمه لنا المؤرخون ليس ملكاً لنا نتصرف فيه بالحذف أو بالاضافة.. بل إن واجب الأمانة يقتضينا أن نحافظ عليه مهما كانت درجة ميله عن الحق ..

إنما نحن بحاجة إلى اتساع الرؤية التاريخية حتى نلم بكل جوانب الحدث التاريخى ولا نتوقف عند زاوية واحدة .. فتتوفر لنا القدرة على التحليل واستخلاص النتائج .. وهو أمر يختلف عن الدعوة إلى (إعادة كتابة التاريخ) التى هى أقرب ما تكون إلى الشعارات السياسية التى تتملق مشاعر العامة مثل (إعادة بناء الانسان) وهى فى الحقيقة تعمل على تدمير كرامة الانسان وتشويه ذاته ...

فلا يوجد عالم يملك القدرة على اعادة كتابة التاريخ ، كما أنه لا يوجد عالم يزعم أنه قادر على إعادة كتابة الجغرافيا أو الكيمياء أو الجبر أو حساب المثلثات .. مثل هذه الدعوات

تهدف إلى صياغة التاريخ بطريقة ترضى صاحب القرار ، وتسعى إلى صب الرؤية التاريخية فى قوالب رسمية صماء يتعين على الناس أن يأخذوا بها ويلفظوا ماسواها .. وهو أمر لا تجده إلا فى الدول ذات النظام الشمولى أو الاستبدادى حيث كل شيء مصبوب فى أنماط جاهزة .. وهو أمر يندر أن تجده فى الدول التى تأخذ بحرية الفكر حيث المؤرخ حر فى أن يقول مايراه وحر فى أن يفسر أحداث التاريخ حسب معتقداته ومذاهب تفكيره .. ولكننا نحن القراء .. أحرار أيضاً فى أن نقبل هذا التفسير أو نرفضه . وما علينا إلا أن نعرض الرؤية التاريخية على ميزان المبادئ العامة التى نحتتها البشرية عبر مسيرتها الطويلة وصاغتها الأديان فى شكل قيم وشرائع ..فما اتفق منها مع هذه القيم نقبله .. وما اختلف نرفضه .. ولا أظن أن هناك من يختلف على أن الظلم ، والاستعمار والاستبداد والاستعباد هى من الرذائل التى تهبط بالكيان الانسانى إلى مستوى الحيوانات .. كذلك لا يختلف اثنان على أن الإخاء والمساواة والعدل والحرية هى من قيم الجمال الانسانى ..

بانوراما التـــاريخ

وبهذا المقياس نستطيع أن نحدد معالم العظمة والبطولة فى كل ما يعرض لنا من حوادث التاريخ .. ولو فعلنا ذلك فسوف نكتشف أننا عشنا مرحلة طويلة من أعمارنا ونحن نضع إكليل البطولة على رؤوس لاتستحقه . وسوف نكتشف أننا تجاهلنا أناسا ، وغمطناهم حقهم وهم فى الحقيقة أبطال وعظماء .

كل ذلك سوف يتكشف لنا لو أعدنا قراءة التاريخ على ضوء القيم الخلقية التى أشرت إليها .. خاصة ونحن ندعوا إلى تخليص العقل العربى من الجمود والركود والتخلف ، الأمر الذى يدعونا إلى إعادة قراءة التاريخ بعدسة ، (بانورامية) تجمع فى إطارها كل الأبعاد والأجزاء حتى نصل إلى نظرة كلية شاملة ..

فنحن الآن فى دراستنا للتاريخ الإسلامى ، نركز دائماً على الجوانب الايجابية مثل الانتصارات التى صاحبت الفتوحات الأولى ونسقط من حسابنا الأحداث والظروف التى أدت إلى مرحلة الانحسار . .

نحن نمضى مع الأحداث طالما كان خطها البيانى متجها نحو الصعود .. ثم نتجاهلها عندما يميل هذا الخط نحو الهبوط والانحدار

ونحن نتحدث عن العوامل والأسباب التى حققت للمسلمين النصر فى بدايات الفتح ، ولكننا نسكت أو نتغافل عن الأسباب التى أدت إلى الهزائم ..

وأرى أن فى هذا المنهج تجنيا على الحقيقة التاريخية فى أن واحد ..

هل نحن خائفون من ذكر الحقيقة كاملة ؟ .

إذا كان هذا الظن صحيحاً فإنه يفسر لنا سر المرض الذى يصيب الشخصية العربية ، ونعنى به «ازدواج» الشخصية » حيث لم يتعود الفرد على التعامل مع الحقيقة بكافة جوانبها ، لأنه لم ير منها إلا الجانب المضىء ، وعندما يكتشف بنفسه الجانب المظلم يكون كمن ارتكب ذنباً يستحق عليه العقاب ..

فنحن نقول لأبنائنا أن أبا جعفر المنصور هو الذى أسس بنيان دولة العباسيين التى ظلت فى الحكم أكثر من خمسة قرون . . وأن شخصيته الفذة كانت عاملا وكان ينبغى أن نمضى مع أبنائنا نحو الحقيقة ونذكر لهم أن المنصور كان طاغية وأنه كان مستبداً .. وأنه كان يأخذ بالشبهة حتى أن أحدا ممن تعاملوا معه أو اقتربوا منه لم يمت ميتة طبيعية .. نحن عندما نقول ذلك فسوف يتعلم أبناؤنا أن الغاية لاتبرر الوسيلة ..

ونحن نتحدث إلى أبنائنا عن حضارة المسلمين فى الاندلس، وكيف تحولت هذه البلاد على أيديهم إلى بؤرة اشعاع حضارى غمر أوروبا وأيقظها من سباتها .. هذا كله صحيح .. ولكن ينبغى أن نتحدث إليهم طويلا عن أسباب طرد المسلمين من الأندلس حتى يتعلموا أن الإغراق فى الترف والبذخ وتسليم أمور الدولة إلى الجوارى والمحظيات والعبيد الامعات .. كان من عوامل ضعف الدويلات الإسلامية وانحلالها . وأن الصراعات القبلية بين المسلمين أراقت من دمائهم أضعاف ماأراقته سيوف الاسبان .. ونحن نروى لأبنائنا أمجاد الدولة العثمانية التى أذلت كبرياء الدولة الرومانية واحتلت عاصمتها القسطنطينية ..وحولتها إلى (اسلام بول) ونفيض فى الحديث عن حدود هذه الامبراطورية التى اتسعت شرقاً وغرباً .. وهذا صحيح .. ولكن لم نشرح لهم أن هذه الدولة كانت فارغة العقل والقلب وأنها كانت تعتمد على قوة السيف فقط .. ولاتعتمد على قوة المبادئ والقيم ، فلما صدأ سيف هذه الدولة فقدت أسباب وجودها .. فانحلت وتدهورت ونحن عندما نقول ذلك لأبنائنا فسوف يعلمون أن قوة السيف لاتكفى وحدها

لبناء الدول.. وإنما يجب أن تصاحبها قوة العقل والقلب والروح .. أعنى أن تصاحبها حضارة روحية و ثقافية واجتماعية ..

* * *

وبعد — ألست معى فى أننا بحاجة ماسة إلى إعادة قراءة التاريخ .. ؟ .

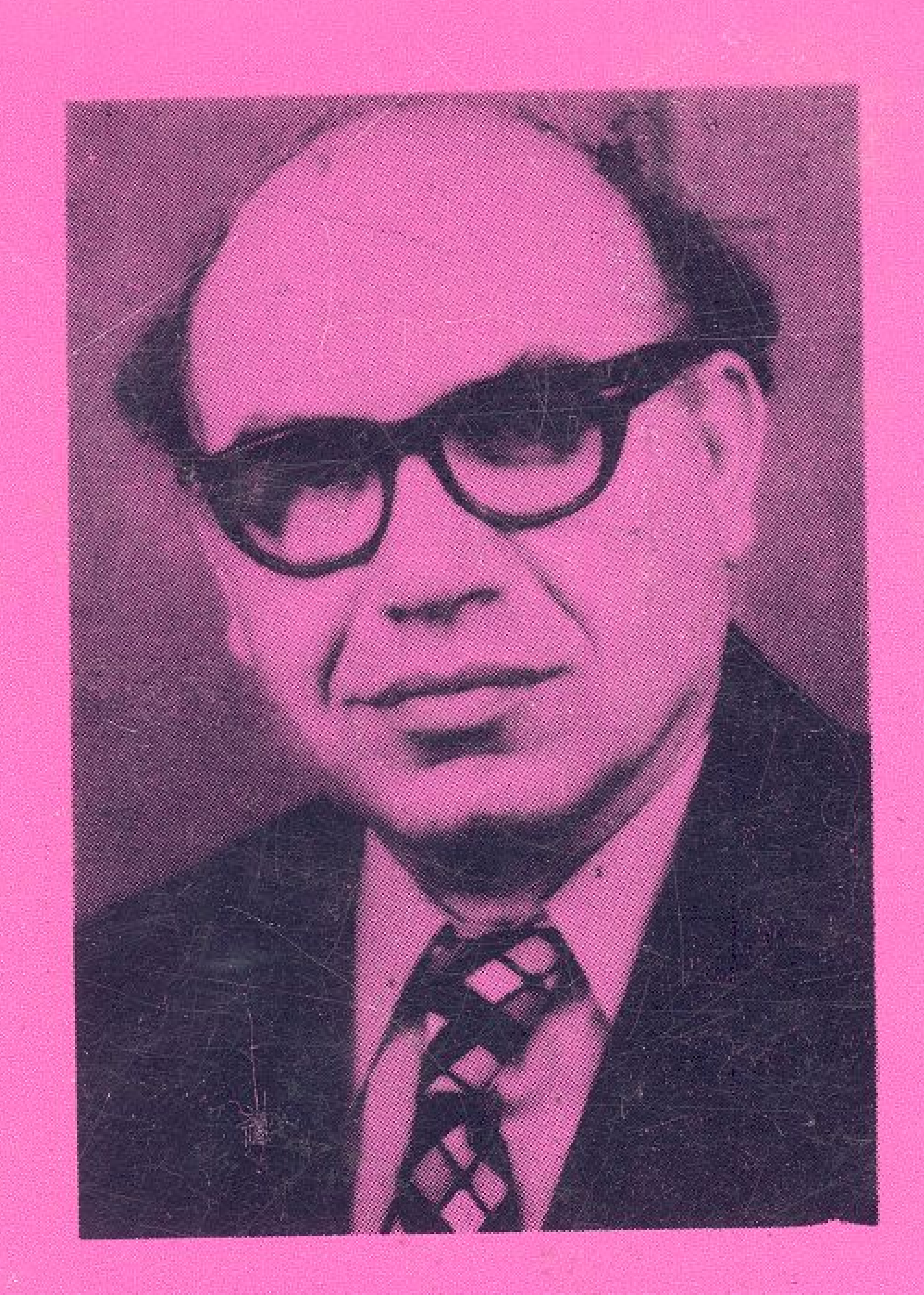
الفهرس

رقم الايداع ٢٠٦٨/١٩٨٤

مطبعة دار التأليف

٨ شارع يعقوب بالمـالية

تليفون ٢١٨٢٥



الكتاب والمؤلف

• ما أكثر ما ينطوى عليه تاريخ الاسلام من بطولات فردية وتضحيات فذة من أجل اقرار المبادىء التى جاء بها الاسلام .. مبادىء العدل والحق والحرية .. ويتناول هذا الكتاب نماذج من الشهداء والضحايا الذين جادوا بأرواحهم أو تحملوا العذاب من أجل اعلاء كلمة التوحيد أو تحرير الأوطان أو الدفاع عن كرامة الانسان .. منهم الامام المجتهد والأديب الشاعر والمحارب الشجاع والمواطن العادى .. نماذج شتىء من عصور متباعدة يجمع بينها حب الاستشهاد والتضحية من أجل المبادىء السامية والقيم الخالدة .

• والمؤلف هو الاستاذ جمال بدوى الكاتب الاسلامى المتخصص فى تاريخ الاسلام وصاحب البحوث المنشورة فى العديد من الصحف والمجلات العربية . وهو رئيس قسم الدراسات بجريدة الأخبار والمشرف على تحرير باب (الفكر الاسلامى) بصحيفة أخبار اليوم .

« عالم الفكر »



الثمن ١٥٠٠ مليم جنيه